تأملات في

منازع الصورة التشبيهية

في القرآن الكريم

بقلم

دكتور / سعد الدين كامل عبد العزيز شحاته

مدرس البلاغة والنقد بالكلية

المقـــــدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبيـــاء وإمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين • وبعـــد •

فإذا كان القرآن الكريم هو معجزة الرسول ــ ﷺ ــ الخالدة إلى قيام الساعة ، فلقد كان هـــذا الاعجاز مثار جـــدل ونقاش بين العلماء منذ فجر التاريخ فمنهم من قال : إن اعجاز القرآن الكريم بما تضمنه من الاخبار عن الغيوب أو بما تضمنه من القصص وسير الأنبياء مع أن الرسول ــ ﷺ ــ كان أميا ، ومنهم من قال : إنه معجز ببلاغته العالية وغير ذلك من الأقوال التى وردت فى اعجاز القرآن الكريم ، وفى الحقيقة أننى منذ نظرت فى كتاب الله عز وجل وجدته متضمنا لكل هـــذه الوجوه من الاعجاز بل وأكثر من ذلك وهو الاعجاز العلمى للقرآن الكريم فى شتى نواحى العلوم والسر فى ذلك هو أن القرآن الكريم نزل لكل زمان ومكان ومن ثم فإعجازه صالح لكل زمان ومكان كما أن القرآن الكريم نزل بكل العلوم ومن ثم فهو معجز لكل العلوم وصـــدق الله العظيم إذ يقول « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » ويقول أيضا : « وما أوتيتم من العلم إلا قليـــلا » •

والخطأ كل الخطأ أن نقف بإعجاز القرآن الكريم عند بديع نظمـــه وعجيب تأليفه لأننا لو فعلنا ذلك لمـــا كان القرآن معجزا لكل معاند فى كل عصر وفى كل علم لأن شرط الاعجاز أن يكون من جنس ما برع فيه القوم • فمثلا العرب فى القرن العشرين قد تفوقوا فى كل العلوم فيجب

على علماء الأمة أن يفنوا حياتهم فى البحث عن الاعجاز العلمى للقرآن الكريم ويبطلوا حجتهم ومن هنا يكون القرآن معجزا لهم إن شاء الله تعالى .

وإذا كنت فى هذا البحث سوف أدرس بعضا من منازع الصورة التشبيهية فى القرآن الكريم ، فلابد لى أن أنوه إلى أن قضية الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم قد تناولها علماء كثير حتى استوت على يد الإمام عبد القاهر الجرجانى ، وآتت أكلها على يد الزمخشرى حين طبقها على القرآن الكريم فى تفسيره الكشاف .

والإمام عبد القاهر فى تناوله لفكرة الإعجاز ناقش المعارضين فيها ، حيث أثبت معرفة العرب الفصاحة والبلاغة وتفوقهم فيها حتى أيد الله رسوله — ﷺ — بمعجزة من جنس ما تفوقوا فيه .

فحروف القرآن الكريم التى تتكون منها كلماته من جنس حروف كلماتهم ، كما أن تركيب جمله من جنس تركيب جملهم وعلى طريقتهم فى هذا التركيب . ولذا تحداهم الله تعالى أن يأتوا بمثله أو بعشر سور منه ، أو بسورة واحدة ، وقد حكى القرآن الكريم ذلك فى أكثر من موضع فبين أولا : بلوغهم فى إتقان اللغة حدا عظيما فى قوله : « فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا »(١) ، وقال سبحانه وتعالى : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم »(٢) .

---

(١) سورة مريم الآية ٩٧ .
(٢) سورة المنافقون آية ٤

وبين ثانيا : تحديه لهم وعجزهم عن مجاراة القرآن الكريم فى فصاحته وبلاغته ، فقال تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »(٣) ، وقال تعالى : « قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات »(٤) ، وقال : « قل فأتوا بسورة مثله »(٥) .

وهذا البحث المتواضع « تأملات فى منازع الصورة التشبيهية فى القرآن الكريم » يثبت أن صور القرآن الكريم التشبيهية قد انتزعها الله تعالى من جنس ما انتزعوا منه صورهم التشبيهية ومع هذا قد عجزوا عن أن يأتوا بمثله ، فالمنزع القرآنى كان دائما قريبا من عقولهم ومدركات حواسهم ، فقد يكون من شىء حسى ، وقد يكون من شىء معنوى ، فهو من الطبيعة التى يحياها العربى بمفهومها الواسع ، والتى تنتظم كل ما تقع عليه عينه من ظواهر كونية فى السماء أو فى الأرض ، أو أشياء حية أو جامدة ، ساكنة أو متحركة .

فالقرآن الكريم عندما صور النواميس الكونية الكبرى المعقدة إنما ترجمها ترجمة يسيرة تستجيب لها الفطرة فى هوادة ويسر ، فقد صورها فى صورة أشياء يشترك الجميع فى إدراكها مع بعدها عن الابتذال .

كما أن الله تعالى صور كثيرا من القضايا الكبرى المهمة فى مجال

---

(٣) سورة المنافقون الآية ٢ .
(٤) سورة هود ١٣ .
(٥) سورة يونس الآية ٣٨ .

العقيدة مثل قضية البعث حينما مثلها الله تعالى بصورة كونية بسيطة مشاهدة للجميع ويشترك الكل فى إدراكها مثل صورة المطر النازل من السماء على الأرض الميتة فيحيها بأمره تعالى كذلك يحيى الله الموتى .

كما كانت منازع الصورة التشبيهية فى القرآن الكريم منهجا خصبا للتربية والتحذير من الاغترار بالدنيا والاعتماد عليها ، وتشبيه كل مرحلة من مراحل الانسان فيها بمرحلة من مراحل النبات حتى تنتهى رحلة الانسان فى الدنيا بإنتهاء رحلة النبات فيها فيتبين قصر مدة التمتع بالدنيا فيؤثر الآخرة ويقبل على الله تعالى ، وغير ذلك الكثير ومن هنا برزت أهمية هذا البحث .

وبما أنه من المعلوم أن الفهم الصحيح لما يرمى إليه القرآن طريقه واحد وهو النص القرآنى نفسه بمعنى التعرف على الدلالة اللغوية للكلمة لأنه نزل بلسان عربى مبين وعلى ضوء هذا ستكون رحلتنا مع بعض الصور التشبيهية فى القرآن الكريم ، ومنهج البحث يتلخص فى الآتى :

١ ــ التحليل اللغوى لبعض مفردات الآية والتعرف من خلال هذا التحليل على المعانى التى تكشف عن جمال اللفظ فى موقعه وعلاقته بالتركيب .

٢ ــ النظر إلى التركيب بأكمله وبمكوناته الدقيقة من الحروف والكلمات والجمل والتعرف على المعانى من خلال تناسق نظم الجمل مما ينضح على الصورة الكلية بجمال التصوير ووضعته تحت تأملات فى النظم ثم أردفت كل صوره ببيان منزعها .

٣ ــ التدبر فى الآيات المتشابهات وما اختصت به كل آية من الصياغة وفقا لسياقها والغرض منها .

٤ ــ اظهار السر البيانى عقب كل آية وتفصيل الكلام فى جزئياته وأركانه مهتديا فى ذلك ومسترشدا بأقوال أئمة المفسرين البلاغيين أو بالرجوع إلى أمهات كتب البلاغة . ثم وضعت فهرسا لأهم المراجع والمصادر التى رجعت إليها .

وهذا المنهج مستوحى من كتاب خصائص النظم القرآنى فى سورة سيدنا إبراهيم للدكتور صلاح الدين غراب .

وأخيرا حسبى أنها محاولة للتعرف على بعض دقائق القرآن الكريم وإظهار بعض أسراره فإن أكن قد وفقت فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء وإن تكن الأخرى فحسبى أننى اجتهد ولن يحرم المخطىء من الأجر إن شاء الله تعالى .

تمهيـــــــد

أولا : معنى كلمة «المنازع» ــ ثانيا : معنى «الصورة التشبيهية» .

قال صاحب القاموس المحيط : نزعه من مكانه ينزعه قلعه كانتزعه ، ويده أخرجها من جيبه(١) وقال الزمخشرى فى الأساس : ماء بعيد المنزع وهو المكان الذى ينزع منه • وبئر نزوع ينزع منها باليد لقرب مائها(٢) المنازع جمع مفرده منزع والمقصود اسم المكان منه منزع بفتح الميم والمراد به كذلك الموطن الذى انتزع منـــه المشبه به فى الصورة التشبيهية ، وذلك الموطن إنما هو الطبيعة بمعناها العام الشامل لحديث النفس وخلجات الضمير •

ثانيا : معنى الصورة فى اللغة •

أولا : معنى الصورة فى اللغـــة :

جاء فى لسان العرب لابن منظور فى أسماء الله تعالى : المصور وهو الذى صور جميع الموجودات ورتبها فأعطى كل شىء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها ؛ على اختلافها وكثرتها •

قال ابن سيده : الصورة فى الشكل ، قال : أما ما جاء فى الحديث من قوله : « خلق الله آدم على صورته »(٢) فيحتمل أن تكون الهاء

(١) القاموس المحيط ــ الفيروزابادى ج ٣ ص ٩٠ ط الحلبى .
(٢) أساس البلاغة ــ الزمخشرى ــ ص ٦٢٨ ط دار الفكر ــ تاج العروس ج ٥ ص ٥٢٠ منشورات دار مكتبة الحياة بيروت .

راجعة على اسم الله تعالى وأن تكون راجعة على آدم ، فإذا كانت عائدة على اسم الله تعالى فمعناه على الصورة التى أنشأها الله وقدرها فيكون المصور حينئذ • مضافا إلى الفاعل ، لأنه سبحانه هو المصور لا أن له ، عز اسمه وجل ، صورة وتمثالا ، وإن جعلتها عائدة على آدم كان معناه على صورة أمثاله ممن هو مخلوق مدبر ، قال ابن الأثير : الصورة ترد فى كلام العرب على ظاهرها وعلى معنى حقيقة الشىء وهيئته وعلى معنى صـــفته(٣) •

ومصطلح الصورة من المصطلحات التى وجدت فى التراث العربى وعنى بها العلماء والنقاد ، وإن كانوا قد درسوها تحت قضـية اللفظ والمعنى أو النظم ، فالصورة قديمة قدم الشعر وأنمـاطها البلاغيـة محصورة فى المجـاز ولكننا قـد نصل إلى الصورة من غير طـريق المجـاز(٤) •

ومفهوم الصورة عند النقاد العرب القدامى كان محصورا ضمن اطار الرؤية العينية : أى أنها مجموعة الملامح المرئية التى يجسد الشاعر من خلالها معانيه المجردة(٥) •

(٣) لسان العرب ابن منظور ج ٤ ص ٢٥٢٣ ط دار المعارف .
(٤) الصورة والبناء الشعرى د/ محمد حسن عبد الله ص ٢٧ طبع ونشر دار المعارف .
(٥) الصورة الشعرية فى الكتابة الفنية د/ صبحى البستانى ص٣٦ ط دار الفكر اللبنانى .

وإن كان الإمام عبد القاهر هو الناقد الوحيد الذى توصل إلى بلوغ بعض أسرار أولية الصورة والكشف عن أثرها ودورها بالرغم من غلبة العنصر المرئى الذى طبعها فى تحليله(٦) ٠

أما النقاد المحدثون العرب فمنهم من توسع فى معنى التصوير فهو عنده يشمل تصوير باللون والحركة والايقاع ويشير إلى هذا المعنى الشيخ سيد قطب ــ رحمه الله ــ فيقول : التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى والحالة النفسية عن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور عن النموذج الانسانى والطبيعة البشرية ثم يترقى بالصورة التى يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة ٠٠٠ ثم يقول : « ويجب أن نتوسع فى معنى التصور حتى ندرك آفاق التصور الفنى فى القرآن، فهو تعبير وتصوير باللون وبالحركة وبالتخيل كما أنه تصوير بالنغمة التى تقوم مقام اللون فى التمثيل وكثيرا ما يشترك الوصف والحوار وجرس الكلمات ونغم العبارات وموسيقى السياق فى إبراز صورة من الصور تتملاها العين أو الأذن والحس والخيال والفكر والوجدان(٧) ٠

أما التشبيه فيطلق عليه الصورة الفنية المقابلة ، وهو عقد موازنة

---

(٦) المرجع نفس ص ٣٩ ٠

(٧) التصوير الفنى فى القرآن الكريم الشيخ / سيد قطب ص٣٦، ٣٧ ٠ ط دار الشرق ٠

بين شيئين أو أكثر قصد اشتراكهما فى صفة أو أكثر بأداة لغرض يقصده المتكلم ، وهذا التعريف يؤكد أن أسلوب التشبيه يتضمن طرفين : أولهما : يتمثل فى شىء أو أمر ٠ وثانيهما : يستوى صورة تقابل الطرف الأول على أساس صفة أو صفات مشتركة تجرى الموازنة بينهما فى مساحتها(٨) ٠

---

(٨) بناء الصورة الفنية فى البيان العربى د/ كامل حسن البصير ص ٢٦٧ ط المجمع العلمى العراقى ٠

الصورة الأولى

قال تعالى : « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين »(٩) .

---

(٩) سورة البقرة الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

المفردات :

النار : جوهر لطيف مضيء ، حار محرق ، وهى مشتقة من نار ينور اذا نفر لان فيها حركة واضطرابا (الكشاف ـ الزمخشرى ـ جـ ص ١٩٥) .

النور : مشتق من النار وهو ضوؤها .

صم : أصل الصم : الصلابة من اكتناز الأجزاء ومنه قيل : حجر أصم ، وقد أطلق على فقدان حاسة السمع بسبب اكتناز باطن الصماخ وانسداد منافذه ، بحيث لا يوجد تجويف يشتمل على الهواء الراكد الذى يسمع الصوت بتموجه (تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب جـ ١ ص ٣٨ ـ تفسير أبى السعود جـ ١ ص ٣٨ ـ تفسير أبى السعود جـ ١ ص ٤١ ـ روح المعانى ـ الألوسى جـ ١ ص ١٦٩ ط دار الفكر) .

بكم : البكم : هو الخرس ، وهو داء فى اللسان يمنع الكلام .

العمى : هو عدم البصر عما من شأنه أن يكون بصيرا ، وقيل : هو ظلمة فى العين تمنع من ادراك المبصرات (تدبر أسرار التنزيل ـ د/ جودة محمد أبو زيد المهدى ص ٣٣) .

التحليل :

فى صدر سورة البقرة « ترتسم ثلاث صور لثلاثة أنماط من النفوس كل نمط منها نموذج حى لمجموعات ضخمة من البشر ، نموذج أصيل عميق متكرر فى كل زمان ومكان حتى ما تكاد البشرية كلها فى جميع أعصارها وأقطارها تخرج عن تلك الأنماط الثلاثة ... وهذا هو الإعجاز »(١٠) .

فوصف الله عز وجل المؤمنين بأربع آيات ، ثم عرف حال الكافرين فى آيتين ، ثم نزلت فى بيان حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ثلاث عشر آية ، لأن النفاق كما يقول ابن كثير يشتبه على كثير من الناس لهذا جاء الإطناب فى ذكرهم بصفات متعددة ، كما أنزل الله تعالى فيهم سورة المنافقين ، وذكرهم فى سورة البقرة ـ آل عمران ـ النساء ـ الأنفال ـ التوبة ـ العنكبوت ـ الأحزاب ـ الحديد ـ التحريم . تعريفا لأحوالهم لتجتنب وتخيف من يلتبس بها ، إن القرآن الكريم قد أطال فى رسم الصورة الثالثة ، وكأنه يوحى بضخامة الدور الذى كان يقوم به المنافقون فى المدينة لإيذاء الجماعة المسلمة ومدى التعب والقلق والاضطراب الذى كانوا يحدثونه ، وزيادة فى الإيضاح يضرب الله الأمثال لهذه الطائفة فقال تعالى : « مثلهم » وضرب الأمثال يؤثر فى القلوب ما لا يؤثره وصف الشىء فى نفسه ، وهى تنير الطريق أمام عقل الإنسان وتصحح نظرته نحو الكون والحياة وتبصره

---

(١٠) (فى ظلال القرآن ـ للشيخ سيد قطب ـ جـ ١ ص ٣٧ ط دار الشروق) .

وتهديه ، وتشوقه إلى معاني الأمور ، كما أنها تقرب المعانى بما يعرفه الناس وتمكنهم من إدراك ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة ليعقلوه ويفهموه ، وهو باب عظيم لتجسيد المعانى ورفع الأستار عن وجوه الحقائق وإبراز المتخيل فى معرض المحقق وإخراج المتوهم فى صورة المتيقن واستحضار الغائب فى صورة المحسوس المشاهد(١١) ،

السر البيانى فى الآيـــــة :

فالله تعالى شبه حال هؤلاء المنافقين فى اشترائهم الضلالة بالهدى وصيورتهم بعد التبصرة إلى العمى بحال من استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ، وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله واستأنس بهـا فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره وصـار فى الظـلام شـديد لا يبصر ولا يهتـدى .

تأملات فى النظم والمنزع من خلال السر البيانى :

وإذا تأملنا فى أحوال المشبه وجدنا عدة أشياء أراد الله تعالى أن ينص عليها فى هيئة المشبه به ، فقد اعتبر فى أحوال المشبه القصد إلى إدعاء الإيمان من المنافقين ، وإجراء الشهادة على لسـانهم وحصول المنافع الدنيوية ، وانتفاء ذلك بغتـة بالموت الذى لا ينفع بعـده ندم ووقوعهم فى ظلمات متراكمة ، واعتبر فى أحوال المشبه به ما يقـابل هـذه الأشياء فاعتبر السعى فى إيقاد النـار والكدح فى إيصـالها وحصول طرف من الإضاءة المطلوبة وزوالها بانطفاء النار بغتة ، ووقوعه

---

(١١) (التفسير الكبير – للفخر الرازى – جـ ١ ص ٧٣ طبعة دار احياء التراث العربى – تدبر اسرار التنزيل صـ ٢٢٢) .

فى الحيرة والحسرة فى هـذا الموقف . فالمشبه به خصبا فى سـياقه ، أى أن له موقعـا يثير دلالات وإشـارات تنعكس على المشبه فتكشف جوانبه ، فكل كلمة فى المشبه به ترسم حقيقة من حقائق هـذه الطائفة التى تفسد المجتمع أينما كانت ، فكلمة (استوقد) وما فيها من السين والتاء الدالتين على الطلب المـلح والكد والاجتهاد ، وما يوحى به ذلك من قوة الدافع بسبب الهول والخوف من الظلمة المحيطة وحرصه على تبين الوجود حوله ، نجد كل هـذه الأشياء موجودة فى المنافق الذى يتفانى فى كشف كل ما حـوله .

والتنكير فى كلمة (نار) يومىء إلى أنه فى هذا الكد والكدح إنما يرجو ضوءا أو نارا قليلة تدفىء صقيع نفسه التى احتوتها الظلمة . وعطف الله تعالى بالفاء دون ثم ليشير إلى تلك السرعة فى الإضاءة ، وكأنها حدثت بمجرد الكد فى إيقاد النار ، وكلمة (لمـا) أعطت معنى المفاجأة السرعة ، وكأن الله عز وجل ذهب بالنور فور وجوده ، فالأمل ما إن بزغ فى النفس إلا وقد ابتلعته ظلمة اليأس فذهب بددا ، وفى إسناد اذهاب النور إلى الله تعالى اشارة إلى أنه كان شديدا وسريعا فلم يبق منه شىء .

فى النظم القرآنى « ذهب الله بنورهم » معنى لا نجده فى أذهب الله نورهم حيث إننا نقول أذهبـه وذهب به فنفضل الثانى على الأول لوجود الباء التى تفيد معنى المصاحبة ، وفى هذه المصاحبة قدر من التخيل . وقال الله تبارك وتعالى : « بنورهم » ولم يقل : بضوئهم ، لأن

الضوء فرط الإنارة ففيه نور وزيادة ، وحتى لا يجوز أحد أن يكون الله تعالى ذهب بالزيادة فقط(١٢) .

هل يجوز فى هـذه الهيئة الفك ؟

وهـذه الجزئيات المكونة للكيفية فى الطرفين لم تذكر على وجه الاستقلال والانفصال منها فى مقابل ما يلائمها من الطرف الآخر وإنما ذكر ذلك على وجه الامتزاج والارتباط بحيث كونت كيفية هى المرادة من التشبيه ولا ينبغى أن يقع فى ظننا أنه يمكن مراعاة الأجزاء فى كل واحد من الطرفين قصدا بمقابلة كل جزء من المشبه به بأن يقول شبه المنافق بالمستوقد نارا وإظهاره الإيمـان بالإضـاءة وانقطاع انتفـاعه بانتفاء النـار .

أن البلاغة لا تقف مع الجواز وإنما تقف مع الاستحسان والهدف من التشبيه وذلك واجب فى العرف البلاغى كما قال عبـد القاهر فى دلائل الاعجاز (أنه لا فضيلة حتى ترى فى الأمر مصنعا وحتى لا تجد إلى التخير سبيلا وحتى تكون قد استدركت صوابا)(١٣) .

هـذا هو القول الفحل والمذهب الجزل الذى عليـه علماء البيان لا يتخطونه من أمثال الشيخ عبد الهادى العدل فى دراساته لبـلاغة عبد القاهر فى التشبيه والتمثيل حيث جعل المركب يختلف عن المتعـدد فى أربعة أشـياء :

---

(١٢) التصوير البيانى ـ محمد محمد أبو موسى ص ٨٥ ، ٨٦ .
(١٣) دلائل الاعجاز تحقيق د/ محمد خفاجى ـ ص ١٣٥ .

الأول : أن المركب قصد فيه إلى امتزاج الأمرين أو الأمور وبناء بعضهما أو بعضها على بعض حتى عادت شيئا واحـدا أو هيئة ملتئمة وصورة خاصة هى المقصودة وذلك هو المراد من الآية الكريمة أما التشبيه المتعدد فقد بقى فيـه كل جزء من الأمرين أو الأمور مستقلا غير ممتزج بالآخر ولا مبنيا عليـه(١٤) .

الثانى : أن التركيب له مغزى وغرض خاص لا يحصل إلا بالتركيب كله أما المتعدد فله أغراض بعدد تشبيهاته .

الثالث : أن المتعدد لا يجب فى جملة ذات نسق خاص ولا ترتيب معين بل يجوز تقديم بعضه وتأخير بعضه من غير إخلال بما يراد منـه أما المركب فكثيرا ما تجدك عاجزا عن تغيير العبارة المؤدية له .

الرابع : إنك تجد فى التشبيه المتعدد أحد الأمرين أو الأمور فى الأكثر قد عطف على الآخر عطف المستقل على المستقل أما المركب فإنك تجد أحد الأمرين فى الغالب مذكورا على وجه التبع للآخر كأن يكون فى صفته أو صلته أو حالا منه أو معطوفا عليـه بالفاء الرابطـة أو نحو ذلـك(١٥) .

وبتطبيق كل هـذه الأشياء وبالنظر فى السياق العام للآية وعلاقات النظم فيها يحتم كل ذلك وجوب التركيب فى الهيئة التشبيهية الآية ففى

---

(١٤) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر فى التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير / الشيخ عبد الهادى العدل ص ٢٧ .
(١٥) دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر فى التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير ص ٢٨ .

فقط مثل إنباء عن التركيب وكذلك نظم الكلام فى جانب المشبه به يدل على ارتبط المعانى بعضها ببعض وفى إضافة مثل للفظ « الذى » ثم وقوع الكلام بعد صلة له ثم العطف بالفاء على الصلة دون الواو وكذلك كلمة (لما) وما بعدها معطوف على ما قبله وفى كل ذلك ما يدل على التأليف والارتباط دون التفريق والتزايل(١٦) ، كما إختار القول بالتركيب أيضا الشيخ سعد الدين فى المطول حيث يقول (فإن الصحيح أن الآية من التشبيهات المركبة التى لا يتكلف الواحد لواحد شىء يقدر تشبيهه به وهو القول الفحل والمذهب الجـــزل وإن جعلتهما من المفـــردة فلابد من تكلفة)(١٧) ، كما أن فى المشبه به إيجاز بالحذف لأن حق النظم أن يكون اللفظ فلما أضاءت ما حوله أطفأ الله ناره ليشاكل جواب لمـــا معنى هـــذه القضية ولكن لمـــا كان إطفاء هـــذه النار مثـــلا لإذهاب نورهم أقيم إذهاب النور مقام الإخفاء وحـــذف جواب لمـــا إيجـــازا لدلالة الكلام عليه(١٨) ، ومنزع هـــذه الصورة من مستخدم من مستخدمات العربى فى البادية وهو إيقاد النار لطهى الطعام والتدفئة بها .

أما قوله تعالى : « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » قال فخر الدين الرازى : اعلم أنه لمـــا كان المعلوم من حـــالهم أنهـــم كانوا يسمعون وينطقون ويبصرون امتنع حمل ذلك على الحقيقة فلم يبق إلا تشبيههم حثهم لشدة تمسكهم بالعناد وإعراضهم عما يطرق سمعهم من القرآن

---

(١٦) بيان التشبيه د/ عبد الحميد العيسوى . ص ٢٨٢ ط القاهرة الجديدة .

(١٧) المطول للشيخ سعد الدين التفتازانى ص ٣٣٧ .

(١٨) مجمع البيان فى تفسير القرآن ـ الطبرسى ـ جـ ١ ص ١١٨ .

وما يظهره الرســـول ـ ﷺ ـ من الأدلة والآيات بمن هو أصم فى الحقيقة فلا يسمع فلم يتمكن من الجواب فلذلك جعـــله بمنزلة الأبكم وإذا لم ينتفع بالأدلة ولم يبصر الرشد فهو بمنزلة الأعمى »(١٩) .

فهم كالصم البكم العمى فى عدم الاستفادة من الحواس وهـــذا تشبيه قد حذفت منها الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغا .

تأملات فى النظم والمنزع من خـــلال السر البيانى :

وعلماء البيان قد اختلفوا فى نوع السر البيانى فى مثل هـــذه الآية فذهب الشريف الرضى فى كتابه المجازات النبوية عند حديثه عن قول النبى ـ ﷺ ـ الصوم جنة ، وقوله للأنصـــار أنتم الشـــعار والناس الدثار . إلى أن هـــذا ومثله مجازا واستعارة(٢٠) .

وذهب أكثر البلاغيين إنى اعتباره تشبيها على حد المبالغة ويمثلهم الرمانى فى رسالته ص ٨٦ ، والقاضى عبد العـــزيز الجـــرجانى فى وساطته ص ٣٧ وابن سنان الخفاجى فى كتابه سر الفصاحة ص ١٠٩ ، والإمام عبد القاهر الجرجانى فى الأسرار جـ ٢ ص ١٨٩ ، والزمخشرى فى الكشاف عند حديثه عن الآية جـ ١ ص ٢٠٣ ومنزع هـــذه الصـــورة التشبيهية من عيب من عيوب الإنسان كانت العرب تنفر منها بشدة فألحق الله عز وجل هـــذه الفئة القبيحة بما استقر فى أذهانهم قبحـــه حتى ينفرهم من الاتصاف بهـــا .

---

(١٩) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للامام فخر الدين الرازى جـ ١ ص ٧٥ ط. احياء التراث العربى .

(٢٠) المجازات النبوية ـ الشريف الرضى ـ ص ٤٢ ، ٦٦ ، ١٣٣ .

أما قوله : أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين .

فهذه الآية شروع فى تمثيل حالهم إثر تمثيل وبيان لكل دقيق منها ، فهم أئمة الكفر الذين تفننوا فيه وتفيئوا ظلال الضلال بعد أن طاروا إليه بقدامى النفاق وحوافيه فحقيقة أن تضرب فى بيداء بيان أحوالهم الوخيمة خيمة الامثال(٢١) .

السر البيانى فى الآية :

هو التشبيه والتمثيل حيث شبه الله تعالى الاسلام بالصيب لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق وما يصيب الكفرة من الافزاع والفتن والبلايا من جهة أهل الاسلام بالصواعق والمعنى أن حال هؤلاء المنافقين كمثل ذوى صيب به هذه الصفات أو أن المراد كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا(٢٢) .

فالمشبه حال هؤلاء المنافقين وهى عقلية بحال هذا المطر وهو من قبيل المحسوس المشاهد وعلى ذلك يكون هذا التشبيه من قبيل المفرق ومعناه أن يكون الممثل مركبا من أمور والممثل به يكون أيضا مركبا من أمور ويكون كل واحد من الممثل شبيها بكل واحد من الممثل به ، ولكن المقصود من التمثيلين هذا التمثيل الذى نحن بصدده والسابق عليه كما قلنا أنها من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة وهذا هو الصحيح الذى

(٢١) روح المعانى جـ ١ ص ١٧٤ ى- دار الفكر .
(٢٢) الرازى جـ ١ ص ٧٥ .

عليه علماء البيان جميعا لا يتخطونه(٢٣) ، حيث قال الرازى أن المقصود تشبيه حيرة المنافقين فى الدنيا والدين بحيرة من انطفأت ناره بعد إيقادها وبحيرة من أخذته السماء فى هذه الليلة المظلمة مع رعد وبرق وقال الزمخشرى إن هذا القول الفحل والمذهب الجزل .

تأملات فى النظم والمنزع من خلال السر البيانى :

١ ــ (كمة أو) قال الفخر الرازى حدث العطف بأو هنا ، لأن أو فى أصلها تساوى شيئين فصاعدا فى الشك ثم اتسع فيها فاستعيرت للتساوى فى غير الشك كقوله تعالى « ولا تطع منهم آثما أو كفورا » أى أن الآثم والكافور سيان فى وجوب عصيانهما وكذا قوله تعالى : « أو كصيب » معناه أن كيفية المنافقين شبيه بكيفيتين هما هاتين القصتين فبأيهما مثلتها فأنت مصيب وإن مثلها بهما جميعا فأنت « جاء الخلافة أو كانت له قدرا »(٢٥) .

٢ ــ وذهب الطبرى إلى أن « أو » وإن كانت فى بعض الكلام تأتى للشك فإنها قد تأتى دالة على مثل ما تدل عليه الواو مثل قول جرير « جاء الخلافة أو كانت له قدرا(٢٥) .

٣ ــ نكر الصيب لأنه أراد نوعا من المطر شديد هائل وقرئ أو كصائب(٢٦) .

(٢٣) الرازى جـ ١ ص ٤٦٠ الكشاف جـ ١ ص ١٢١١ .
(٢٤) التفسير الكبير جـ ١ ص ٤٦١ فخر الدين الرازى ط دار الفكر العربى .
(٢٥) جامع البيان فى تفسير القرآن جـ ١ ص ١١٦ الطبرى ط الريان للتراث .
(٢٦) التفسير الكبير جـ ١ ص ٤٦٠ .

٣ ـ لماذا جمع الظلمات وإفراد الرعد والبرق ؟

لأن الظلمات أنواع مختلفة حصلت فى وقت واحد أما الرعد فهو نوع واحد وكذا البرق ولا يمكن اجتماع أنواع الرعد والبرق فى السحاب الواحد .

جاءت الثلاثة منكرة لأن المراد منها أنواع خاصة كأنه قيل فيه ظلمات داجية ورعد قاصف وبرق خاطف .

٤ ـ مرجع الضمير فى يجعلون محذوف فى اللفظ باق فى المعنى وهو أصحاب الصيب وفصلت هذه الجملة عما قبلها لشبه كمال الاتصال لأنه لما ذكر الرعد والبرق على ما يؤذن بالشدة والهون فكأن قائلا قال : فكيف حالهم مع مثل ذلك الرعد ؟ فقيل : يجعلون أصابعهم فى آذانهم ثم قال : فكيف حالهم مع ذلك البرق ؟ فقال : يكاد البرق يخطف أبصارهم .

٥ ـ عبر بالمجاز المرسل الذى علاقته الكلية لبيان شدة هذه الصواعق .

٦ ـ بحث أداة التشبيه فى هذا المثل يقول الشيخ سعد الدين فى المطول بأن الأصل فى الكاف ونحوها أن يليها المشبه به إما لفظا كقوله تعالى « مثلهم كمثل استوقد نارا » فإن المشبه به وهو مثل المستوقد قد أتى بعد الكاف وأما تقديرا كقوله تعالى « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق » فإن التقدير أو كمثل ذوى صيب محذوف ذوى لدلالة قوله تعالى « يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق » عليه لأن هذه الضمائر لابد لها من مرجع . وحذف مثل

لقيام القرينة أعنى عطفه على قوله « كمثل الذى استوقد نارا » فالمثل المشبه به قد ولى الكاف لأم المقدر فى حكم الملفوظ(٢٧) .

٧ ـ وختم الله تبارك وتعالى هذه الآية بقوله « والله محيط بالكافرين » ليبنههم على عدم جدوى سدهم لآذانهم من حيث أن حظر المخلوق لا يرد قدر الخالق جل شأنه وفى هذه الخاتمة استعارة تبعية حيث شبه شمول قدرته تعالى لهم وانطواء ملكوته عليهم بإحاطة المحيط بما أحاط به بامتناع الفوات أو أن فيه استعارة تمثيلية حيث شبه الهيئة المنتزعة من شئونه تعالى معهم بالهيئة المنتزعة من شئون المحيط مع المحاط به(٢٨) .

وبعد هذه السياحة فى بحور البلاغة القرآنية نعود فنقول أى التمثيلين أبلغ ؟

يقول الزمخشرى : التشبيه الثانى أبلغ لأنه دل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته ولذلك أخر وهم يتدرجون فى نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ(٢٩) .

ومنزع هذه الصورة منزع كدنى سمائى فكثيرا ما رأى العربى فى باديته هذا المطر النازل من السماء يصحبه البرق ويشتد الرعد ، وقد كانت العرب تستبشر بالمطر فإذا صاحبه الرعد والبرق توجست منه خيفة .

---

(٢٧) المطول ص ٣٢٨ .
(٢٨) تفسير أبى السعود بحاشية الشهاب ج ص ٤٠٦ .
(٢٩) الكشاف .

الصـــورة الثانيـــة

قال تعالى : « مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصـابت حرث قوم ظلموا أنفســهم فأهلكته ومـا ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون »(٣٠) .

المعنى العـــام :

مثل نفقاتهم وأعمالهم التى يرجون الانتفاع بها فى الآخرة فى بطلانها وذهابها وعدم نفعتها كمثل زرع أصابته ريح باردة أو نار فأحرقته وأهلكه فلم ينتفع أصـحابه بشىء بعـد ما كانوا يرجـون فائدته ونفعـه(٣١) .

الصر البيـانى فى الآيـــة :

هو التشبيه المركب الذى يقول عنـه الألوسى بأنه توجد فيـه الزيادة من الخلاصة إلى المجموع(٣٢) .

---

(٣٠) سورة آل عمران الآية ١١٧ .

(٣١) القرطبى جـ ٣ ص ١٤١٩ ط دار الريان للتراث .

الريح : وهى واحدة الرياح وفى الصحاح واحدة الأرياح وقد تجمع على رواح لأن أصلها الواو وانما جاءت بالياء لانكسار ما قبلها .

الصر : البرد الشديد كما قال ابن عباس وقال الزجاج الصر صوت لهب النار وقد كان فى تلك الريح وقيل : هو الأصل صوت الريح الباردة من صر الباب والقلم صريرا اذا صوت .

الحرث : مصدر بمعنى المفعول أى المحروث قوم لو ارضا محروثة .

(٣٢) تفسير روح المانى جـ ٢ ص ٣٦ الجزء الأول .

فقد شبه الله عز وجل هيئة انفاقهم العجب ظاهرها المخيب آخرها حينما يحبطها الكفر بهيئة زرع أصابته ريح باردة فأهلكته .

وهـذا التشبيه من قبيل المعقول بالمحسوس ووجه الشبه عند التركيب قلة الجـدوى والضياع ولمـا كان التشبيه تمثيليا لم يتوخ فيـه موالاة ما شبه به إنفاقهم لأداة التمثيل فقيل كمثل ريح وهـذا التشبيه من قبيل المركب الذى لم يقابل فيـه الإفراد بالإفراد(٣٣) .

على حين ذهب معظم المفسرين من أمثال الألوسى والفخر الرازى إلى أن هـذا التشبيه يجوز أن يكون من المفرق فيشبه إهلاك الله تعالى بإهلاك الريح والمنفق بالحرث وجعل الله تعالى أعمالهم هباء منثورا بما فى الريح الباردة من جعله حطاما(٣٤) .

تأملات فى النظام والمنزع من خلال الصر البيانى :

١ ــ فصلت هذه الآية عن السابقة عليها للاستئناف البيانى لأن قوله تعالى : « لن تغنى عنهم أموالهم » يثير سؤال سائل عن إنفاقهم الأموال فى الخير من إغاثة الملهوف وإعطاء الديات فى الصلح والقتلى . فضرب الله هـذه الآية مثلا لأعمالهم ، فكانت جوابا عن هـذا السؤال .

٢ ــ (ما) قال أبو حيان : الظاهر أنها موصولة والعائد محذوف أى ينفقونه بشبه الريح والمعنى بالحرث وقال : يجوز فيها أيضا أن تكون مصدرية أى مثل انفاقهم(٣٥) .

---

(٣٣) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٢ ص ٣٧ .

(٣٤) التفسير الكبير للامام الرازى ص ١٩٤ .

(٣٥) تفسير البحر المحيط جـ ٢ ص ٣٧ .

٣ ـ ما المراد بالانفاق ؟ يقول الرازى واختلفوا فى تفسير الانفاق على قولين : الأول أن يكون المراد بالانفاق هنا جميع الأعمال التى يرجون الانتفاع بها فى الآخـرة ٠

والثانى وهو الأشبه أن المراد إنفاق المـال والدليل عليه ما قبل الآيـة(٣٦) ٠

أما عن منزع هـذه الصورة فهو مكون من عنصرين أحدهما : كونى وهو الريح وهبوبها ٠ والثانى : نباتى وهو الحرث وهلاكه ٠

وكلاهما قد عرفه العرب ، وكان الأول عندهم مثلا فى الاهلاك والضـياع ٠

(٣٦) التفسير الكبير للامام الفخر الرازى جـ ٧ ص١٩٤ ٠

الصـورة الثالثـة

قال الله تعالى : « قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذا هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهـدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين »(٣٧) ٠

المعنى العـام للآيـــة :

نزلت هـذه الآية فى عبد الرحمن أبى بكر الصـديق كان يدعو أباه إلى الكفر وأبواه يدعوانه إلى الإسلام فيأبى وشهد عبد الرحمن ابن أبى بكر بدرا وأحد مع قومه كافرا ودعا إلى البراز فقام إليـه أبوه ليبارزه ثم أسلم وحسن إسـلامه وصـحب النبى ﷺ فى هـدنة الحديبية(٣٨) ٠

السر البـلاغى فى الآيـــة :

هو التشبيه والتمثيل حيث شـبه الله تعالى حـال من خلص من الشرك ثم عاد إليه بحال من ذهبت به مردة الجن وفسقتهم إلى المهامة المضلة بعد ما كان على الجادة ، غير مستمع إلى نصح من يهدونه إلى الطريق المستقيم الداعين له إلى النجاة مما هو فيـه فالمشبه على هـذا

(٣٧) الأنعـام الآية ٧١ ٠

استهوته : هو استعال من هوى فى الأرض اذا ذهب فيها كان معناه طلبت هوية وحرصت عليه ٠

حيران : الحيرة ٠ التردد فى الأمور لا يهتدى الى مخرج منه ٠

(٣٨) انظر القرطبى جـ ٤ ٠ ص ٢٤٥٤ ٠

مركب عقلى حقيقى لأن هـذه الحالة مما يستقل العقل بإدراكها والمشبه به على أن الكاف فى محل نصب حـــال ، أى مشبهين الذى استهوته الشياطين من قبيل المركب العقلى الوهمى لأن الشياطين واستهواءها مما لا يدرك بالحس وإن كان المستهوى الضال محسوسا ، وكذلك بقية أجزاء المركب(٣٩) •

هل هـذا التركيب يجوز فيـه التفريق ؟

وهـذا التركيب البديع صالح للتفريق بأن يشبه كل جزء من أجزاء الهيئة المشبهة بجزء من أجزاء الهيئة المشبه بها فيشبه الإرتداد بعـد الإيمان بذهاب عقل المجنون ويشبه الكفر بالهيـام فى الأرض ويشبه المشركون الذين دعوهم إلى الارتداد بالشياطين وتشبه دعـوة الناس للإيمان ونزول الملائكة بوحيه بالأصحاب الذين يدعون إلى الهدى(٤٠) •

تأملات فى النظم والنزع من خـلال السر البيانى :

١ – أولا نرى أن الاستفهام يفيد الانكار والتأييس أى أن هـذه الحالة غير حاصلة من النبى ﷺ ولا من أصحابه الذين آمنوا به حينما جاء النظم بنون المتكلم فى ندعو ليغير النظم ذلك •

٢ – جملة نرد على أعقابنا داخلة فى حيز الانكار أيضـا لأنهـا معطوفة على ندعو •

---

(٣٩) بيان التشبيه د/ عبد الحميد العيسوى ص ٢٢ •
(٤٠) القرآن والصورة البيانية د/ عبد القادر حسين ص ٦٤ •

٣ – على أعقابنا فعلى تفيد الاستعلاء ثم استعمل هنا تمثيلا شائعا فى التلبس بحالة ذميمة كان صاحبها قد فارقها قبل ذلك ثم عاد إليهـا(٤١) •

٤ – نرى أن كلمة استهوته مفيـدة لغـاية الاضطراب والضعف والدهشة التى يكون عليها هـذا الضـال حيث يقول الرازى واختلفوا فى اشتقاق كلمة استهوته على قولين الأول وهو الأولى بالقـول أنه مشتق من الهوى فى الأرض وهو النزول من الموضع العالى إلى الوهدة العميقة المظلمة فى قعر الأرض فشبه الله حال هـذا الضال به وللدلالة على كمال اضطرابه ثم يقول الرازى على أن هـذا المثل فى غاية الحسن لأن الذى يهوى من المكان العالى إلى الوهدة العميقة يهوى إليهـا مع الاستدارة على نفسه لأن الحجر حال نزوله من الأعلى إلى الأسفل ينزل على الاستدارة ، ذلك يوجب كمال التردد والتحير وأيضا فعنـد نزوله لا يعرف أنه يسقط على أى ناحية يزداد بلاؤه بسبب سقوطه عليـه أو يقل فإذا اعتبرت مجموع هـذه الأحوال علمت أنك لا تجد مثالا للمتحير المتردد والخائف أحسن ولا أكمل من هـذا المثال(٤٢) •

٥ – حينما نقول إن هـذه الصورة فى جانب المشبه به من قبيل العقلى الوهمى فما هو العقلى الوهمى ؟ هو ما لا وجود له ولا أجزائه أو بعضها فى الواقع المـادى الخارجى ، ولو فرض موجودا فى الخارج كان مدركا بإحدى الحواس ، وبهذا القيد الأخير يتميز عن العقلى الصرف

---

(٤١) التحرير والتنوير الطاهر بن عاشور جـ ٧ ص ٣٠٢ •
(٤٢) الرازى جـ ١٣ ص ٣٠ •

والعقلى الوجدانى ولا ينافى ذلك أن يكون من العقلى ولكنه لون منه متميز .

ولعل مما يقوى ذلك ما ذكره الدسوقى فى حاشيته على مختصر السعد . من أن أجزاء المركب الخيالى لابد أن تكون كلها مدركة بالحس فلو كان المدرك بالحس بعضها لم يكن خياليا بل هو وهمى(٤٣) ، وههنا استهواء الشياطين غير مدرك بالحس لأن الشياطين نفسها غير مدركة به فيكون المشبه به من قبيل العقلى الوهمى .

٦ ــ منزع هذه الصورة يقول الزمخشرى : إن هذه الصورة فى جانب المشبه به مستمدة من معتقدات العرب وزعمائهم من أن الجن تستهوى الانسان والجن تستولى عليه(٤٤) .

ولكن ابن ناقيا البغدادى يرفض أن تكون الغول خرافة(٤٥) .

٧ ــ وأهل السنة والجماعة يرفضون قول الزمخشرى فى ذلك ويقررون أن هذه الصورة مستمدة من الواقع وإن كان غير مشاهد فالقرآن الكريم فى بناء تراكيبه وصوره وأخباره وقصصه لم يعول على خرافة من خرافات العرب لأن فى ميدان الحقائق الصادقة ما يفى بالأغراض فالشياطين تستهوى وتخبط وتمس وما إلى ذلك مما تشير إليه آيات القرآن الكريم .

---

(٤٣) حاشية الدسوقى على مختصر السعد جـ ٣ ص ٣١٥ .
(٤٤) الكشاف جـ ٢ ص ٢٨ .
(٤٥) راجع حاشية ابن المنير على الكشاف جـ ١ ص ٣٩٨ ، ٣٩٩ . التصوير البيانى د/ محمد أبو موسى ص ٩٥ ، ٩٦ مباحث فى علوم القرآن للشيخ مناع القطان ٣٠٩ وبيان التشبيه د/ عبد الحميد العيسوى ص ٢٣٩ .

الصورة الرابعة

قال تعالى : « أو من كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون »(٤٦) .

المعنى العام للآية :

لما تقدم ذكر المؤمنين والكافرين فى الآيات مثل الله تعالى هنا بأن شبه ذكر المؤمنين بالحى الذى له نور يتصرف به كيفما سلك والكافر بالمتخبط فى الظلمات المستقر فيها ليظهر الفرق بين الفريقين(٤٧) .

والمعنى : هنا أو من كان بمنزلة الميت أعمى البصيرة كافرا فأحيا الله قلبه بالإيمان وأنقذه من الضلال بالقرآن وجعل له مع تلك الهداية النور العظيم الوضاء الذى يتأمل به الأشياء فيميز به بين الحق والباطل كما هو يتخبط فى ظلمات الكفر والضلالة لا يعرف المنقذ والمخلص(٤٨) ؟

السر البيانى فى الآية :

هو التشبيه والتمثيل(٤٩) . يقول الألوسى : ثم إن هذا الأخير كما قال شيخ الإسلام مثل أريد به من بقى فى الضلالة . بحيث لا يفارقها

---

(٤٦) الأنعام الآية ١٢٢ .
(٤٧) البحر المحيط جـ ٤ ص ٢١٤ .
(٤٨) صفوة التفاسير جـ ٣ ص ٤١٥ .
(٤٩) يقول الألوسى جـ ٣ الجزء الثانى ص ١٨ .

أصلا كما أن الأول أريد به من خلقه الله تعالى على فطرة الإسلام وهداه بالآيات البينات إلى طريق الحق يسلكه كيف شاء لكن لا على أن يدل على كل واحد من هـذه المعانى بما يليق به من الألفاظ الواردة فى المثلين بواسطة تشبيهه بما يناسبه من معانيها فإن ألفاظ المثل باقية على معانيها الأصلية بل على أنها قد انتزعت من الأمور المتعددة المعتبرة فى كل واحد من جانب المثلين هيئة على حدة ومن الأمور المتعددة المذكورة فى كل واحـد من جانب المثلين هيئة على حـدة فشبهه بهما الأولتان ونزلتـا منزلتهما فتستعمل فيهما ما يدل على الأخيرتين بضرب من التجـوز ، يقول صاحب التحرير والتنوير : أن الهمزة للانكار المستعمل فى انكار تماثل الحالتين ، فالحالة الأولى هى حالة الذين أسلموا بعـد أن كانوا مشركين وهى المشبه بحال من كان ميتا مودعا فى الظلمات فصار حيـا فى نور واضح مسار فى الطريق الموصلة للمطلوب بين الناس ، والحالة الثانية هى حالة المشرك وهى المشبهة بحالة من هو فى الظلمـات ليس بخارج منهـا(٥٠) .

تأملات فى النظم والمنزع من خـلال السر البيانى :

١ ـ الكاف فى كمن مثله فى الظلمات كاف التشبيه ، وهو تشبيه منفى بالاستفهام الانكارى أى نفى المشابهة بين من أسلم ومن بقى فى الشرك .

٢ ـ قال أهل المعانى : وصف الله تعالى الكفار بأنهم أموات قال تعالى : « أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون » فاما جعل الكفر

(٥٠) التحرير والتنوير ـ الطاهر بن عاشور جـ ٨ ص ٤٤ .

موتا والكافر ميتا جعل الهدى حياة والمهتدى حيا ، وجعل الكفر موتا لأنه جهل والجهل يوجب الحيرة والوقفة وهو كالموت الذى يوجب السكون أيضا والميت لا يهتدى إلى شىء والجاهل كذلك(٥١) .

٣ ـ المراد بالظلمات هى ظلمة القبر لمناسبته للميت .

٤ ـ جاء التشبيه بديعا إذ جعل حال المسلم بعـد أن صـار إلى الإسلام بحال من كان عديم الخير عديم الفائدة كالميت فإذا هداه الله إلى الإسلام تغير حاله فصار يميز بين الحق والباطل ويعلم الصالح من الفاسد فصار فى نور يمشى به فى الناس .

٥ ـ تبين من هـذا التمثيل تفضيل أهل إستقامة العقول على أصـدادهم .

منزع هـذه الصورة من تلك الظلمات الدامسة التى كانت تنتشر فى البادية ويخشاها العرب .

(٥١) التفسير الكبير ـ فخر الدين الرازى جـ ١٣ ص ١٧٠ .

الصـــورة الخامســـة

قال تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون »(٥٢) .

المعنى العـــام :

أى من شاء الله هدايته قذف فى قلبـــه نورا فينفسح له وينشرح وذلك علامة الهداية للإسلام ، وقال بعض أهل العلم معناه يوسع قلبـه للتوحيد والإيمان وحين سئل رسول الله ﷺ عن هـــذه الآية قال : إذا دخل النور القلب إنفسح وانشرح ، قالوا فهـل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والإستعداد للموت قبل نزوله(٥٣) .

السر البيـانى فى الآيـــة :

هو تمثيل هيئة معقولة بهيئة متخيلة لأن الصعود فى السماء غير واقـع(٥٤) .

---

(٥٢) سورة الأنعام الآية ١٢٥ .

شرح : الشرح أصله التوسعة وشرح الله صدره وسعة للبيان .

حرجا : الحرج هو الضيق الشديد ، وكرر المعنى وحسن هذا التكرار لاختلاف اللفظ قال ابن عباس الحرج موضع الشجر الملتف فكأن قلب الكافر لا تصل اليه كما لا تصل الرعية الى الموضع الذى التف شجره .

(٥٣) جامع البيان ـ الطبرسى جـ ١٢ ص ١٠٠ ـ القرطبى جـ ٤ ص ٢٥١٧ .

(٥٤) التحرير والتنوير جـ ٨ ص ٨٣ .

فكأن الله تعالى شبه الكافر فى نفوره من الإيمان وثقله عليه بمنزل من تكلف شيئا لا يطيقه كما أن صعود السماء لا يطاق وفى كيفية هـذا التشبيه يقول الرازى وجهان :

الأول : كما أن الانســـان إذا كلف الصعود إلى السماء ثقل ذلك التكليف عليه وعظم عليـــه وقويت نفرته ، منه فكذلك الكافر يثقل عليـه الإيمان وتعظم نفرته عنـــه .

الثانى : أنه يكون التقدير أن قلبه ينبو عن الإسلام ويتباعد عن قبول الإيمان فشبه ذلك البعد ببعـــد من يصعد من الأرض إلى السماء والكاف فى قوله تعالى « كذلك » تفيد التشبيه بشىء وفى هـذا الشىء وجهان : الأول : أن يجعل الله الرجس عليهم كجعله ضيق الصـدر فى قولهم ، الثانى : قال الزجاج التقـــدير مثل ما قصصنا عليك يجعل الله الرجس(٥٥) .

منزع هـــذه الصورة من عنصرين أحدهما : كونى وهو السـماء والصعود فيها والثانى : إنسانى وهو من كلف بالصعود إليها .

---

(٥٥) مفاتيح الغيب ـ الرازى جـ ١٣ ص ١٨٤ .

الصـــورة السادسة

قال الله تعالى : « وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه إلى بلد ميت فأنزلنا به المـاء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون »(٥٦) .

المعنى العـــام :

إن الله تبارك وتعالى يرسل الرياح مبشرة بالمطر ومعنى بين يدى رحمته أى أمام نعمته وهو المطر الذى هو من أجل النعم وأحسنها أثرا على الإنسان حتى إذا جاءت الرياح سحابا مثقلا بالمـاء سقنا هـذا السحاب إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها فأنزلنا فى هـذه البلـد الميت المـاء فأخرجنا بذلك المـاء من كل الثمرات ومثل هـذا الإخراج نخرج الموتى من قبورهم لعلكم تعتبرون وتؤمنون .

السر البيـانى فى الآيـــة :

التشبيه بين الإخراجين مما لا مرية فيـه وفى الخازن اختلفوا فى وجه التشبيه فقيل : إن الله تعالى كما يخلق النبات بواسطة انزال المطـر كذلك يحى الموتى بواسطة انزال المطـر أيضا فقـد روى عن أبى هريرة وابن عباس رضى الله عنهما أن الناس إذا ماتوا فى النفخة الأولى أمطر عليهم ماء من تحت العرش يدعى ماء الحياة أربعين سنة

---

(٥٦) سورة الأعراف الآية ٥٧ .
بشرا اى مبشرة بالمطر
اقلت : حملت والمعنى حملت الريح سحابا ثقالا بالمـاء

فينبتون كما ينبت الزرع حتى إذا استكملت أجسادهم تنفخ فيهم الروح ثم يلقى عليهم النور فينامون فى قبورهم فإذا نفخ فى الصور النفخة الثانية عاشوا ثم يحشرون من قبورهم ويجدون طعم النوم فى رؤوسهم وأعينهم كما يجد النائم حين يستيقظ من نومه ، فعند ذلك يقولون ياويلتنا من بعثنا من مرقدنا ؟ وقيل إنما وقع التشبيه بأصل الإحياء من غير اعتبار كيفية فيجد الإيمان به ولا يلزمنا البحث عن الكيفية(٥٧) .

---

(٥٧) روح المعانى الآلوسى جـ ٣ الجزء الثانى ص ١٤٨ .

الصورة السابعة

قال الله تعالى : « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم »(٥٨) .

المعنى العام :

أى اذكر حين اقتلعنا جبل الطور ورفعناه فوق رؤوس بنى إسرائيل كأنه سقيفة أو ظلة غمام حتى أيقنوا أنه ساقط عليهم إن لم يمتثلوا الأمر .

السر البياني فى الآية :

هو التشبيه حيث شبه الله تعالى الجبل الذى رفعه فوق رؤوسهم بالغمامة أو السقيفة أى كان هذا الجبل لارتفاعه عليهم سحابة تظل ما تحتها وقد جعل ابن قتيبة فى كتابه نقد النثر هذه الصورة من أجود التشبيه وأبلغه لأن فيها اخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة فالمعنى الجامع بين المشبه والمشبه به الانتفاع بالصورة .

والصورة منتزعة من تلك الظلة المشاهدة أمام أعينهم والتى كثيرا ما كانوا ينصبونها فى أسفارهم لتقيهم من وهج الشمس .

---

(٥٨) سورة الاعراف الآية ١٧١ .

نتقنا : النتق الجذب بقوة قال أبو عميرة : أصل انتق قلع الشىء من موضعه والرمى به

ظل : كل ما أظل من سقف أو سحابة او حائط والجمع ظلل وظلال

الصورة الثامنة

قال الله تعالى : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون »(٥٩) .

يقول الله تبارك وتعالى « يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب أن يطفئوا نور الإسلام وشرع محمد عليه السلام بأفواههم الحقيرة بمجرد جدالهم وإفترائهم .

السر البياني فى الآية :

حينما ننظر فى هذه الآية وأقوال العلماء فيها نجد أنهم قد استفصحوها فمنهم من قال بأن بها استعارة أصلية تصريحية أو استعارة تمثيلية ويمثلهم الألوسى فى روح المعانى ومنهم من قال بأن بها تشبيها وتمثيلا وهم أبو حيان فى البحر المحيط والفخر الرازى فى التفسير الكبير والطاهر بن عاشور فى التحرير والتنوير وإننى أرى أن اللفظ القرآنى يحتمل كل ذلك .

نعود إلى الآية فنقول مثل الله حالهم فى طلبهم أن يبطلوا نبوة محمد ﷺ بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم منبث فى الآفاق يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى فى الإشراق والإضاءة ليطفئه بنفخه وبطمسه بها .

---

(٥٩) سورة التوبة الآية ٣٢ :

نور الله: المراد حجته تعالى النيرة المشرقة الدالة على وحدانيته وتنزيهه سبحانه عن الشركاء والأولاد .

أفواههم : — جمع فوه على الأصل لأن الأصل فم

فعلى ذلك يكون هـذا الكلام مركب مستعمل فى غير ما وضع له على طريق تشبيه الهيئة بالهيئة ومن كمال بلاغتـه أنه صـالح لتفكيك التشبيه بأن يشبه الإسلام وحده بالنور ويشبه الارجـاف والتكذيب بالنفخ ومن الرشاقة أن آلة النفخ وآلة التكذيب واحدة وهى الأفواه .

تأملات فى النظم والمنزع من خلال السر البيانى :

١ ــ هـذه الآية استئناف إبتدائى لزيادة إثارة غيظ المسلمين على أهل الكتاب بكشف ما يضمرونه للإسلام .

٢ ــ نقول إن هـذه الآية تمثيلية من قبيل المركب ونقول أيضا أن التركيب فيها صالح للتفريق وحينما نقارن بينها وبين بيت بشار « كأن مثار النقع » الصالح للتفريق والفك أيضا نرى أن التفريق فى الآية أشـد استقلالا كما يظهر ذلك بالتأمل .

٣ ــ إضافة النور إلى اسم الجلالة اشارة إلى أن محاولة اطفائه عبث وأن أصحاب تلك المحاولة لا يبلغون مرادهم .

٤ ــ الإباء والاباية هو الامتناع عن الفعل وهو هنا تمثيل لإرادة الله تعالى إتمام ظهور الإسلام بحال من يحاوله محاول على فعل وهـو يمتنع عنـه لأنهم لمـا حاولوا طمس الإسـلام كانوا فى نفس الأمر محاولين إبطال مراد الله تعالى فـكان حالهم فى نفس الأمر كحال من يحاول من غيره فعلا وهو يأبى أن يفعله .

٥ ــ الاستثناء مفرغ وإن لم يسبقه نفى لأنه أجرى فعل يأبى مجرى نفى الإرادة كأنه قال ولا يريد الله إلا أن يتم نوره .

٦ ــ مقارنة بين هـذه الآية وبين مثلها فى سورة الصف إذ قال الله تعالى « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره » نقول جاءت الآية الأولى بهذا النظم وبهذا التركيب للدلالة على شدة مماحكة أهل الكتاب وتصلبهم فى دينهم . وجاءت آية الصف على هـذا النظم لأن المنافقين كانوا يكيدون للمسلمين خفيـة وفى لين وتملق ، والصورة منتزعة من مشهد مكرر عندهم وهو إطفاء نور السراج عند نومهم .

الصـــورة التاســـعة

قال الله تعالى : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت »(٦٠) ٠

المعنى العـــام للآيـــــة :

يضرب الله مثلا للحياة الدنيا الزائلة الفانية وقصر مدة التمتع بها بأن صفتها وحالتها العجيبة فى فنائها وزوالها وذهاب نعيمها واغترار الناس بها كمثل مطر نزل من السـماء فنبت به أنواع من أنواع النبات مختلط بعضها ببعض من كل لون مما يأكله الناس من الحبوب والثمار والبقول والأنعام من الكلأ والتبن والشعير حتى إذا أخذت الأرض حبها وبهجتها وتزينت بالحبوب والثمار والأزهار وظن أصحابها أنهم متمكون من الانتفاع بها محصون فى قلوبهم لثمرتها جاءها قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات إما ليلا وإما نهارا ٠

السر البيـانى فى الآيـــــة :

هو التشبيه والتمثيل حيث شبهت حال الدنيا فى سرعة تقضيها وانقراض نعيمها حطاما بعـد اغترار الناس بها ، واعتمادهم عليها ،

---

(٦٠) سورة يونس الآية ٢٤
انما مثل الحياة الدنيا كلام مستأنف لبيان شأن الحياة ، الدنيا وقصر مدة التمتع بها ٠ والكلام عن أصل المثل قد مر قبل ذلك ٠
ازينت : أصلها تزينت فحدث فيها ادغام ٠
الزخرف : كمال حسن الشىء ونضارته ، سمى زخرفا لبهجته ونضارته

بحال نبات ذهبت نضرته فجأة فصار حطاما بعـد ما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته وعم نفعه الانسان والحيوان وطمع الناس فيه وظنوا أنه قد سلم من الجوائح ٠

ووجه الشبه : هو الهيئة الحاصلة من سرعة التقضى وزوال الذى بعـد الإقبال وعموم النفع واغترار الناس به واعتمادهم عليه(٦١) ٠

ومن جمال هـذا التشبيه أنه تعالى بين فيـه أنه كما لا يحصل لذلك الزرع عاقبة تحمد فكذلك المغتر بالدنيـا المحب لها لا يحصل له عاقبـة تحمد(٦٢) ٠ وهـذا التشبيه من قبيل التشبيه البليغ حيث أن فيـه إخراج ما لم تجر به العـادة إلى ما جرت العـادة أى يتوافر فيـه عنصر الطرافة والغرابة فقد اجتمع المشبه به فى الزينة والبهجة ثم الهلاك بعده وفى ذلك العبرة لمن اعتبر(٦٣) ٠

تأملات فى النظم والمنزع من خلال السر البيانى :

أولا : نلاحظ على هـذا التشبيه كثرة جمله فهل ذلك بسبب كون وجه الشبه عقليا أم لشىء آخر ؟ لعل ظـاهر كلام الشيخ فى أسرار البلاغة ذلك إذ يقول الشيخ فى أسرار البلاغة « إن التشبيه كلما كان أوغل فى كونه عقليا كانت حاجته إلى الجمل أكثر »(٦٤) ٠

ولكن الشيخ عبد الهادى العدل ذهب إلى أن العبارة التى قالهـا

---

(٦١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٣٣ دراسـات تفصـيلية شـاملة البلاغة عبد القاهر فى التشبيه والتمثيل ص ٥٧ ؛
(٦٢) النكت فى اعجاز القرآن للرمانى ص ٧٧ ٠
(٦٣) أسرار البلاغة جـ ١ ص ١٨٤ ـ كتاب نقد النثر لقدامة بن جعفر
(٦٤) أسرار البلاغة جـ ١ ص ٢١٨ ط الخفاجى ٠

الشيخ قد جاءت مقلوبة وذلك لأن كثرة الجمل فى التشبيه وقلتها ليست تابعة العقلية والحسية ولكنها تابعة للمعانى التى يستدعى تأليف الكلام منها فقد يستدعى الغرض تأليف من جملة وقد يستدعى تأليفه من أكثر من جملة ثم يوازن بين هـذه الآية وبين آية الكهف ٤٥ ثم يقول فأساس التشبيهين ومغزاهما واحد وهو التحذير من الاغترار بالدنيا ونعيمها ، وتأكيد سرعة زوالها ، ولكن لوحظ فى التشبيه الأول أمور اقتضت كثرة جمله ولم تلاحظ فى الثانى منها :

١ – إفادة عموم النفع وجمال الأرض وبهجتها .

٢ – ومنها إفادة اغترار الناس بها . واعتمادهم عليها ، وظنهم أنهم متمكنون منها وأنها قد سلمت من الجوائح . فزيادة الجمل جاءت من إرادة هـذه المعانى لا من التوغل فى العقلية(٦٥) .

٣ – هذه الآية تنزل منزلة البيان لجملة (إنما مثل الحياة الدنيا) المؤذنة بأن تمتعهم بالدنيا ما هو إلا لمدة قصيرة فبينت هـذه الآية أن التمتع صائر إلى الزوال .

٤ – صيغة القصر لتأكيد المقصود من التشبيه وهو سرعة الانقضاء ولتنزيل السامعين منزلة من يحسب دوام بهجة الحياة الدنيا لأن حالهم فى الانكباب على نعيم الدنيا كحال من يحسب دوامه وينكر أن يكون له انقضاء سريع مفاجىء والمعنى قصر حالة الحياة الدنيا على مشابهة حالة النبات الموصوف فالقصر قصر قلب بنى على تنزيل المخاطبين منزلة من يعتقد عكس تلك الحياة .

---

(٦٥) الدراسات التفصيلية ص ٥٨ .

٥ – ومن بديع هـذا التشبيه تضمنه تشبيهات مفرقة من أطراف الحالين بحيث يصلح لكل جزء من هـذا التشبيه المركب التشبيه جزء من الحالين المتشابهين وكذلك أغلب وصف الحالين من إبتدائه كماء أنزلناه من السماء شبه به إبتداء أطوار الحياة من ولادة الصبا إذ ليس سوى قلة الأمل فى كونه سبب ما يؤمل منه من زخرف الأرض ونضارتها وقوله فاختلط به نبات الأرض شبه به طور إبتداء نضارة العيش وإقبال زهرة الدنيا كما أن العطف بفاء التعقيب للإيذان بسرعة ظهـور النبات عقب المطر فيؤذن بسرعة نماء الحياة فى أول أطوارها .

« بما يأكل الناس والأنعام » وصف لنبات الأرض الذى من أصناف بأكلها ولما كان ذلك قد تضمن المأكول والآكل صح الشبه به رغبات الناس فى تناول لذائذ الحياة على حسب إختلاف مراتب الهم وذلك يتضمن تشبيه معالى الأمور من نعيم الدنيا التى تسمو إليها الهمم العوالى بالنبات الذى يقتاته الناس ، وتشبه سفاسف الأمور للنبات الذى تأكله الأنعام ويتضمن تشبيه الذين يجنحون إلى تلك السفاسف بالأنعام .

والصورة منتزعة من عنصرين شاهدهما العربى فى البادية ، وكثيرا ما تعلقت نفسه بهما تعلقه بالدنيا وهما عنصر المطر النازل من السماء ، وعنصر النبات الصاعد من الأرض إثر نزول المطر ، ثم يتم النبات دورته فى النمو حتى يصير كأن لم يكن .

الصـــورة العاشرة

قال تعالى : « له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى المـاء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال »(٦٦) .

المعنى العـــام :

الله تعالى تتجه الدعوة فهو الحقيق بأن يعبد ويتجه إليـــه بالدعاء والالتجاء أما الآلهة الذين يدعوهم الكفار من دون الله لا يستجيبون لهم دعاء ولا يسمعون لهم نداء إلا كمن بسط كفيه للماء من بعيـــد يدعوه وينادية ليصل المـاء إلى فمه والمـاء جماد لا يحس ولا يسمع فكيف يصل إليـــه .

السر البيـانى فى الآيـــة :

هو التشبيه والتمثيل حيث شبه الله تعالى آلهتهم حين استكفائهم إياهم وما أهمهم بلسان الاضطرار فى عدم الشعور فضلا عن الاستطاعة للإستجابة وبقائهم لذلك فى الخسار بحال ماء يترائى للعطشان باسط كفيه إليـــه يناديه عبارة وإشارة ، فهو لذلك فى زيادة الكباد والبوار ، لأن المـاء لا يجيبه . والتشبيه على هـــذا من المركب التمثيلى أبرز فى معرض التهكم ، وقد يراد من بسط الكفين إلى المـاء بسطها أى نشر أصابعهم ويديهم لشربه لا للدعاء وعلى هـــذا قد شبه الداعون لغير الله تعالى بمن أراد أن يغرف الماء بيديه فبسطها ناشرا أصابعه مع أنهما لا يحصلان على طائل وجعل بعضهم وجه الشبه قلة الجدوى ولعلـه

---

(٦٦) سورة الرعد الآية ١٤ .

أراد عدمها ولكنه بالغ بذكر القلة وأراد العدم إيثارا للصدق ولاشمام طرف من التهكم(٦٧) .

ويقول أبو حيان : شبه فى قلة جدوى دعائهم لآلهتهم لمن أراد أن يغرف المـاء بيديه ليشربه فبسطهما ناشرا أصابعه فلم تبق كفاه منه شىء ولن يبلغ طلبه من شربه ، وقد قال الزمخشرى لمثل ذلك(٦٨) .

تأملات فى النظم والمنزع من خلال السر البيانى :

١ ــ لمـاذا ضرب الله تعـالى هـــذا المثـل هنا بالمـــاء ؟ يذكر الألوسى الجواب عن ذلك فيقول : ضرب الله عز وجل مثلا ليأسهم من الاجابة لدعائهم لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا للقابض على المـاء مثل قول الشاعر :

فأصـبحت فيمـا كان بينى وبينهـا
من الود مثل القابض المـاء باليد(٦٩)

٢ ــ من جمال هذا التشبيه التمثيلى إخراج ما لا نفع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه وقد اجتمع فى الحاجة إلى نيل المنفعة والحسرة بما يفوت من درك الطلبة وفى ذلك الزجر عن الدعاء إلا الله عز وجل الذى يملك النفع والضر ولا يضيع مثقال ذرة(٧٠) .

---

(٦٧) روح المعانى ــ الألوسى ج ٥ ص ١٢٥ .
(٦٨) البحر المحيط ج ٥ ص ٣٧٦ ، الكشاف ج ٢ ص ٣٥٤ .
(٦٩) القرطبى ج ٥ ص ٣٥٢٩ .
(٧٠) اعجاز القرآن الكريم للرمانى ضمن ثلاث مسائل فى اعجاز القرآن ص ٨٣ .

٣ ـ من جمال هـذا التمثيل أنه مشتمل على كناية تمليح .

٤ ـ جملة « وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » عطف على جملة « والذين يدعون من دونه » لاستيعاب حال المدعو وحال الداعى فبينت الجملة السابقة حال عجز المدعو عن الاجابة وأعقبه بالتمثيل المشتمل على كناية تمليح الدالة أيضا على خيبة الداعى(٧١) .

والصورة منتزعة من بعض مشاهدات العرب اليومية وهى صورة ذلك الرجل الذى يغترف الماء بكفيه ليروى ظمأه الحارق .

(٧١) التحرير والتنوير ـ الطاهر بن عاشور جـ ١٣ ص ١١٠ .

الصـــورة الحادية عشر

قال الله تعالى : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون من مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد »(٧٢) .

المعنى العـــام :

أن مثل أعمال الكفار التى عملوها فى الدنيا يبتغون بها الأجر من صدقة وصلة رحم وغيرها مثل رماد عصفت به الريح فجعلته هباء منثورا :

يقول القرطبى : ضرب الله هـذه الآية مثلا لأعمال الكفار فى أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد فى يوم عاصف لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى(٧٣) .

السر البيـانى فى الآيـــة :

هو التشبيه والتمثيل حيث شبهت أعمالهم المتجمعة العديدة برماد مكدس ، فإذا اشتدت الرياح بالرماد انتثر وتفرق تفرقا لا يرجى معه اجتماعه مرة ثانية ، ووجه الشبه على ذلك هو الهيئة الحاصلة من

(٧٢) سورة ابراهيم الآية ١٨
الرماد : ما بقى من احتراق الشىء .
عاصف : شديد الريح .
(٧٣) القرطبى جـ ٩ ص ٣٥٣ .

اضمحلال شيء كثير بعد تجمعه والهيئة معقولة(٧٤) ، ويعد الرمانى هذا التشبيه من التشبيه البليغ لأن فيه إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة أى تتوفر فيه صفة الوضوح والبيان حتى لا يبقى فيه شك لمرتاب(٧٥) وقد اجتمع المشبه والمشبه به فى الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات وفى ذلك الحسرة العظيمة والموعظة البليغة .

تأملات فى النظم والنزع من خلال السر البيانى :

١ ــ المثل هذا مستعار للصفة التى فيها غرابة .

٢ ــ المراد بهذه الأعمال عدة أمور الأول : أن المراد منها ما عملوا من أعمال البر كالصدقة وصلة الرحم وغيرها لأنها تصير محبطة بكفرهم . الثانى : أن المراد من تلك الأعمال عبادتهم للأصنام وما تكلفوه من كفرهم الذى ظنوه إيمانا وطريقا إلى الخلاص . الثالث : أما المراد من هذه الأعمال كلا القسمين(٧٦) .

٣ ــ وصف اليوم بالعاصف فيه مجاز عقلى .

٤ ــ لماذا شبه الله تعالى هذه الأعمال بالرماد ؟ لأن الرماد أنفع أفضل أعمالهم وأشيعها بينهم وهى قرى الضيف حتى صارت كثرة الرماد كناية عن لسانهم فى الكرم .

---

(٧٤) التحرير والتنوير جـ ١٣ ص ٢١٢ .
(٧٥) اعجاز القرآن الكريم للرمانى ص ٧٥ .
(٧٦) التفسير الكبير جـ ٩ ص ١٠٤

٥ ــ جعله لا يقدرون مما كسبوا على شيء بيان لجملة التشبيه أى ذهبت أعمالهم سدى لا يقدرون أن ينتفعوا بشيء منها . وجملة ذلك هو الضلال البعيد تذييل جامع لخلاصة حالهم وهى أنها ضلال بعيد .

الصورة منتزعة من بعض استخدامات العربى فى البادية وهو ذلك الرماد المتبقى من إيقادهم الدائم وهبوب الرياح به حتى تذهب به بددا كأن لم يكن .

الصورة الثانية عشر

قال الله تعالى : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا »(٧٧) .

السر البياني في الآية :

هذا مثل آخر للدنيا وبهرجها الخادع يشبه مثل الجنتين في الفناء والزوال والمعنى اضرب يا محمد للناس مثل هذه الحياة في زوالها وفنائها وانقضائها بماء نزل من السماء فخرج به النبات وافيا غزيرا وخالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه ثم صار النبات متكسرا من اليبس تنسفه الرياح ذات اليمين وذات الشمال وكان الله قادرا على الإفناء والإحياء لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء .

السر البياني في الآية :

هو التشبيه حيث شبه الله حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من اهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضرا وراقا ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن(٧٨) .

ووجه الشبه هو المصير من حال حسن إلى حال سيء .

---

(٧٧) الكهف الآية ٤٥ .
هشيما : الهشيم هو اليابس المتكسر من النبات
(٧٨) التحرير والتنوير جـ ١٥ ص ٣٣٠ .

نوع هذا التشبيه :

يظهر لنا من كلام صاحب الكشاف(٧٩) أنه يحمل على تشبيه المعقول بالمحسوس أو على أنه مركب محسوس بمركب محسوس إذ يقول وهذا تشبيه معقول محسوس لأن الحياة المشبهة معقولة إذ لم ير الناس بوادر بهجة الحياة . ويقول أيضا شبهت هيئة إقبال نعيم الدنيا في الحياة مع الشباب والجدة وزخرف العيش لأهله ثم تقلص ذلك وزوال نفعه ثم انقراضه بهيئة إقبال منبت الزرع ونشأته عنه ونضارته ووفرته ثم أخذه في الانتقاص وانعدام التمتع به ثم تطايره أشتاتا في الهواء تشبيها لمركب محسوس بمركب محسوس وهذا المثل وثيق الصلة بالمثل السابق حيث يبين الله تعالى في المثل السابق حال الكافر والمؤمن وما آل إليه ما افتخر به الكافر من الهلاك ويبين في هذا المثل حال الدنيا واضمحلالها ومصيرها فيها من النعيم والترف إلى الهلاك فالمثلان على ذلك يدلان على حقارة الدنيا وقلة بقائها والكلام متصل بما تقدم من قصة المشركين المتكبرين على فقراء المسلمين(٨٠) .

وأرى أن جعل التشبيه من المركب العقلي بالمركب الحسي أولى كما هو الظاهر من الآية .

تأملات في النظم والمنزع من خلال السر البياني :

١ ـ ما هي العلة من تشبيه الله تعالى الدنيا بالماء ؟ يقول القرطبي : قالت الحكماء : إنما شبه الله تعالى الدنيا بالماء لأن الماء

---

(٧٩) الكشاف جـ ٢ ص ٤٨٦ .
(٨٠) البحر المحيط جـ ٦ ص ١٣٣ ـ الرازي جـ ٢ ص ١٢٩ .

لا يستقر فى موضع كذلك الدنيا لا تبقى • ولأن المـاء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا ، ولأن المـاء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل فيـه كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنها وآفاتها ، ولأن المـاء إذا كان بقدر كان نافعا منبتا وإذا جاوز المقدار كان ضارا مهلكا وكذلك الدنيا الكفاف فيها ينفع والفضول فيها يضر ، وفى حـديث النبى ـ ﷺ ـ قال له رجل : يا رسول الله إنى أريد أن أكون من الفائزين قال : ذر الدنيا وخذ منها كالمـاء الراكد فإن القليل منها يكفى والكثير منهـا يغنى •

٢ ـ التعبير بالفاء للاشعار بسرعة زواله وصيرورته بتلك الصفة •

٣ ـ الأصل فى الكاف أن تدخل على المشبه به وهى هنا دخلت على المـاء وليس هو المشبه به وحده إذ ليس المراد تشبيه حال الدنيـا بالمـاء ولا بمفرد آخر يتمحل تقديره(٨١) •

---

(٨١) المطول ـ سعد الدين التفتازانى ص ٣٢٨ •

الصـــورة الثالثـــة عشر

قال الله تعالى : « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين »(٨٢) •

السر البيـانى فى الآيـــــة :

الآية بهـــا تشبيهان الأول تشبيه طى السـماء بطى السـجل والثانى تشبيه إعادة الخلق بالابتداء أى يحشرهم الله تعـالى عـراة على الصورة التى بدأ خلقهم عليها •

والتشبيه الأول من قبيل التشبيه المرسل المفصل ، والتشبيه المرسل هو الذى تذكر فيه الأداة وإنما سمى بذلك لاطـلاقه عما يقوى الشبه بين الطرفين • والتشبيه الأول منتزع أيضا من بيئة العرب فقد عرفت شيئا عن الكتابة •

---

(٨٢) الأنبياء الآية ١٠٤ •

الطى : ضد النشر وقال الحسن بأنه الافناء والازالة من قولك : أطوعنى هـذا الحديث ، وأنكر ابن القيم افناء السماء واعدامها وادعى أن النصوص انما تدل على تبديلها وتغييرها من حال الى حال ويبعد القول بالأفناء ظاهر التشبيه •

السجل : الصحيفة وقيل هو مخصوص من الصحف بصحيفة العهد أى الطومار الذى يكتب فيه وقيل السجل اسم كاتب كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا يعيد أو يطلق على الرجل بلغة الحبشة وعلى هذه الوجوه فهو ما يقال كطى زيد الكتاب •

السجل الصك وهو اسم مشتق من السجالة وهى الكتابة ثم استعيرت لمسمى ت الكاتبة والمراجعة مساجلة •

قال الله تعالى : « حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » (٨٣).

المعنى العام :

يرسم النص مشهدا عنيفا يصور من نزل قدماه عن أفق التوحيد فيهوى إلى درك الشرك فإذا هو ضائع ذاهب بددا كأن لم يكن من قبل أبدا . وهى صورة صادقة لحال من يشرك بالله . فيهوى من أفق الإيمان السليمة إلى حيث الفناء والانطراء إذ يفقد القاعدة الثابتة التى يطمئن إليها . قاعدة التوحيد ويفقد المستقر الآمن الذى يثوب إليه فتتخطفه الأهواء تخطف الجوارح وتتقاذفه الأوهام تتقاذف الرياح . وهو لا يمسك بالعروة الوثقى ، ولا يستقر على القاعدة الثابتة ، التى تربطه بهذا الوجود الذى يعيش فيه (٨٤) .

السر البيانى فى الآية :

هو التشبيه حيث شبه الله حال من ضل بكفره وابتلى بالأفكار الفاسدة التى انحطت به عن أفق الإيمان العالى بهيئة من انحدر من السماء ولم يستقر على الأرض فيكون له فيها وجود وإنما كان بين أمرين : إما أن تخطفه طيور الجو الجارحة وتمزقه اربا أو يذهب على متن الريح إلى المهاوى السحيقة . الذى أشرك بالله إما أن يسلم لضلالات المحدثين المتصارعة فيكون مثل الكائن بين الطيور المتخطفة فيتمزق

---

(٨٣) الحج الآية ٣١ .

(٨٤) فى ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٢٤٢ .

فكره ووجدانه وكلما قامت فى نفسه فكرة هدمتها فكرة أخرى ، وإما أن يعطل قوة المفكرة التى منحها الله إياه ، فلا يفكر فى معرفة الله تفكيرا يستيم فيه صوت الفطرة وهتاف الكون كله ، وكأن ما هوت به الريح إلى مكان بعيد عن دائرة الصراع بين الخير والشر فهو منفصل عن الكون (٨٥) .

وعلى ذلك نرى أن التشبيه فى الآية يمكن أن يكون من قبيل المركب والمفرق فإن كان تشبيها مركبا فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية بأن صور حاله بصورة من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق مزعا فى حواصلها أو عصفت به الريح فى بعض المطارح البعيدة .

وإن كان مفرقا فقد شبه الإيمان فى علوه بالسماء والذى ترك الإيمان وأشرك بالله والساقط من السماء والأهواء تتوزع أفكاره بالطير المتخطفة . والشيطان يطوح به فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة (٨٦) .

بعد أن ذكر الألوسى أنه يمكن أن يكون التشبيه من قبيل المركب والمفرق يقول على الوجهين تفريق التشبيه وتركيبه فى الآية تشبيهان وذكر الطيبى أن فيها على التركيب تشبيهين ، وتهوى عطف على (خر) وعلى التفريق تشبيها واحدا (وتهوى) عطف على (تخطف) وزعم

---

(٨٥) انظر بيان التشبيه ص ٢٢٢ .

(٨٦) انظر الكشاف جـ ٣ ص ١٣ والهامش - الآلوسى الجزء الثانى جـ ٦ ص ١٤٩ .

الطيبى أن فى عبارة الكشاف ما يؤذن بذلك ولكن الألوسى رد عليه بأن ذلك غير مسلم(٨٧) .

وصاحب التحرير والتنوير جعله من قبيل التمثيل المقابل لتفريق أجزائه ثم ذكر كلام(٨٨) الزمخشرى والرازى ونحن نرى أن جعل التشبيه من قبيل التمثيل المركب أولى لأن للصورة التركيبية وقع فى النفس أفضل .

تاملات فى النظم من خلال السر البيانى :

هذه الصورة فى جانب المشبه به من الصور الخيالية على اصطلاح البيانين لأن عناصرها المكونة لهيئتها التركيبية وهى الرجل والسماء والخرور والطير وخطفها والريح وهويها كلها كائنة فى الوجود والعالم المحسوس ولكنها فى هيئتها المركبة هذه ليست كائنة فى عالم الواقع فلم يشاهد الناس فى وجودهم رجلا يسقط من السماء فيحدث له ما يحدث(٨٩) .

هذا وقد ذكر الدسوقى فى حاشيته على مختصر سعد الدين على التلخيص : أن أجزاء المركب الخيالى لابد أن تكون مدركة كلها بالحس ، فلو كان المدرك بالحس بعضها لم يكن خياليا ، بل هو وهمى يلحق بالعقلى . وإنما سمى ذلك المركب خياليا لكون صور أجزائه مرتسمة فى

---

(٨٧) الآلوسى ص ١٥٠ ج ٦ .
(٨٨) الزمخشرى ج ١٧ ص ٢٥٤ وكذلك الرازى ج ٢٣ ص ٢٣٠ .
(٨٩) التصوير البيانى د/ محمد أبو موسى ص ٩٠ ـ ٩١ .

الخيال(٩٠) . على أننا يجب أن نضع فى اعتبارنا ما ذهب إليه البهاء السبكى من اننا حين نقول عن الطرف : أنه حسى أو خيالى أو عقلى أو وهمى أو وجدانى فالمراد أن يكون إدراك السامع له بإحدى هذه الوسائل المدركة وذلك للاحتراز من التشبيهات الواردة فى كلام الله تعالى فإن علمه عز وجل باعتباره القائل ليس بشىء من هذه الطرق(٩١) .

فوصف الطرق بأحد هذه الأوصاف إنما هو باعتبار إدراك السامع وقت استماعه للآية لا باعتبار إدراك الإنسان وقت قراءتها .

قال الله تعالى : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم » النور الآية ٣٥

المعنى العام للآية :

من أول هذه السورة إلى هذا الموقف بين الله تعالى فيها بعض التعاليم والتهذيب والتوجيه عالج به الكيان البشرى حتى أشرق بالنور وتطلع إلى الأفق الوضىء ، واستشرق النور الكبير فى آفاق السماوات والأرض . هذا النور الذى منه قوامها ومنه نظامها فهو الذى يهبها

---

(٩٠) راجع حاشية الدسوقى على المختصر ج ٣ ص ٣١٤ من شروح التلخيص .
(٩١) انظر عروس الأفراح ج ٣ ص ٣٠٧ من شروح التلخيص .
المشكاة : الكوة فى الحائط غير النافذة وأصلها الوعاء يجعل فيه الشىء
الدرى : المتلألأ الوقاد الذى يشبه الدر فى صفاته ولمعانه .

جوهر وجودها • ولقد استطاع البشر أخيرا أن يدركوا بعلمهم طرفا من هذه الحقيقة الكبرى عندما استحال فى أيديهم ما كان يسمى بالمادة بعد تحطيم الذرة إلى اشعاعات منطلقة لا قوام لها إلا النور ولا مادة لها غير النور فذرة المادة مؤلفة من كهارب والكترونيات تنطلق عند تحطيمها فى هيئة إشعاع قوامه هو النور فأما القلب البشرى فكان يدرك هذه الحقيقة الكبرى قبل العلم بقرون وقرون كان يدركها كما شف ورف وانطلق إلى آفاق النور • ولقد أدركها كاملة شاملة قلب محمد ﷺ ففاض بها وهو عائد من الطائف نافض كفيه من الناس عائذ بوجه ربه يقول أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة وفاض بها فى رحلة الإسراء والمعراج فلما سألته السيدة عائشة رضى الله عنها هل رأيت ربك ؟ قال نور • أنى أراه ولكن الكيان البشرى لا يقوى طويلا على تلقى ذلك الفيض الغامر دائما ولا يستشرق طويلا ذلك الأفق البعيد فبعد أن حلا النص هذا الأفق المترامى عاد يقارب مداه ويقربه الادراك البشرى المحدود فى مثل قريب محسوس (٩٢) •

السر البيانى فى الآية :

هو التشبيه التمثيلى حيث شبه نور الله الذى وصفه فى قلب عبده المؤمن بالمصباح الوهاج فى كوة داخل زجاجة تشبه الكوكب الدرى فى الصفاء والحسن الخ وسمى تمثيلا لأن وجه الشبه منتزع من متعدد وهو من روائع التشبيه (٩٣) •

---

(٩٢) فى ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٥١٨ •

(٩٣) صفوة التفاسير جـ ١ ص ٣٤٦ •

ومن المعلوم أنه فى كل تشبيه يجب أن يكون فيه المشبه والمشبه به فما هو المراد بالمشبه هنا ؟ لقد اختلف فى المشبه هنا وذكروا وجوها الأول قول جمهور المتكلمين ونصرة القاضى أن المراد بالنور هنا الهدى التى هى الآيات البينات وقيل المراد بالنور هنا القرآن وقد صرح الله عز وجل بكونه نورا فى قوله « وأنزلنا إليكم نورا مبينا » وقيل المراد به الحق فقد جاء استعارة النور له كاستعارة الظلمة للباطل فى قوله سبحانه « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » أى من أنواع الباطل إلى الحق ووجه الشبه الظهور وقيل : المراد به المعارف والعلوم التى أفاض بها عز وجل على قلب المؤمن (٩٤) •

والتشبيه الذى تتضمنه الآية الكريمة من قبيل تشبيه المعقول وهو نوره تعالى بمعنى أدلته سبحانه بالمحسوس وهو نور المشكاة المبالغ فى نعته وأنه ليس فى المشبه أجزاء ينتزع منها التشبيه ليبنى عليه أنه مركب أو مفرق وذكر الألوسى أنه إذا كان تشبيه النور بمعنى الهدى الذى دلت عليه الآيات المبينات فهو من التشبيه المركب العقلى وقد شبه فيه الهيئة المنتزعة بأخرى فإن النور وإن كان لفظه مفردا دل على متعدد وكذا إذا كان المراد تشبيه ما نور الله تعالى به قلب المؤمن من المعارف والعلوم بنور المشكاة المنبث فيها من مصباحها وفى الحواشى الطيبة بعد اختيار أن المراد بالنور الهداية بوحى ينزله الله على رسول يبعثه ما هو ظاهر فى أن التشبيه من قبيل التشبيه المفرق بل صرح بذلك أخيرا

---

(٩٤) الآلوسى

واستدل عليه بأن التكرير فى الآية يستدعى ذلك وقد أطال الكلام فى هـذا المقـام(٩٥) •

تأملات فى النظم من خلال السر البيانى :

١ ــ قد يقول قائل لم شبه الله تعالى نوره بهذا المثل وقد علمنا أن ضوء الشمس أبلغ من ذلك بكثير ؟

قلنا أنه سبحانه أراد أن يصف الضوء الكامل الذى يلوح وسط الظامة لأن الغالب على أفهام الناس وخيالاتهم إنما هو الشبهات التى هى كالظلمات وهداية الله تعالى فيما بينها كالضوء الكامل الذى يظهر فيما بين الظلمات • وهـذا المقصود لا يحصل من ضوء الشمس لأن الضوء إذا ظهر امتلأ العالم من النور الخالص وإذا غاب امتلأ العالم من الظلمة الخالصة فلا جرم كان ذلك المثل أليق أو أوفق •

٢ ــ فى المشبه به أمور اعتبرها الله تعالى توجب كمال الضوء •

أولها : المصباح لأن المصباح إذا لم يكن فى المشكاة فرقت أشعته أما إذا وضع فى المشكاة اجتمعت أشعته فكانت أكثر إنارة والذى يحقق ذلك أن المصباح إذا كان فى بيت صغير فإنه يظهر من ضوئه أكثر مما يظهر فى البيت الكبير •

(٩٥) الآلوسى جـ ٦ الجزء الثالث ١٧٠ وكذا قال بذلك صاحب البحر المحيط جـ ٦ ص ٤٥٥ .

ثانيها : أن المصباح إذا كان فى زجاجة صافية فإن الأشعة المنفصلة عن المصباح تنعكس من بعض جوانب الزجاجة إلى البعض لمـا فى الزجاجة من الصفاء والشفافية وبسبب ذلك يزداد الضوء والنور والذى يحقق ذلك أن شعاع الشمس إذا وقع على الزجاجة الصافية تضاعف الضوء الظاهر حتى أنه يظهر فيما يقابله مثل ذلك الضوء فإن انعكست تلك الأشعة من كل واحد من جوانب الزجاجة إلى الجانب الآخر كثـرت الأنوار والأضواء وبلغت النهاية الممكنة •

ثالثها : أن ضوء المصباح يختلف بحسب اختلاف ما يوقد به فإذا كان ذلك الدهن صافيا خالصا كانت حالته بخلاف حالته إذا كان كدرا وليس فى الأذهان التى توقدها يظهر فيـه من الصفاء مثل الذى يظهر فى الزيت فربما يبلغ فى الصفاء مثل الذى يظهر فى الزيت فربما يبلغ فى الصفاء والرقة مبلغ المـاء مع زيادة بياض فيـه وشعاع يتردد فى أجـزائه •

رابعها : أن هـذا الزيت يختلف بحسب اختلاف شجرته فإذا كانت لا شرقية ولا غربية بمعنى أنها كانت بارزة للشمس فى كل حالاتها يكون زيتونها أشد نضجا فكان زيته أكثر صفاء وأقرب إلى أن يتميز صفوه من كدره لأن زيادة الشمس كانت سببا فى ذلك فإذا اجتمعت هـذه الأمور الأربعة وتعاونت صار ذلك الضوء خالصا كاملا فيصلح أن يجعل مثلا لهداية الله تعالى (٩٦) •

٣ ــ يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار لأن الزيت إذا كان خالصا

(٩٦) التفسير الكبير للامام الفخر الرازى جـ ٢٣ ص ١٣١ •

صافيا ثم رؤى من بعيد يرى كأن له شعاعا فإذا مسه النار إزداد ضوء على ضوء .

٤ ـ نور على نور المراد ترادف هـذه الأنوار واجتماعها .

٥ ـ فى إعادة لفظ المصباح دون أن يقال فيها مصباح فى زجاجة كما قال كمشكاة فيها مصباح ، اظهار فى مقام الاضمار للتنويه بذكر المصباح لأنه أعظم أركان هـذا التمثيل وكذلك إعادة لفظ الزجاجة فى قوله « الزجاجة كأنها كوكب درى » لأنه من أعظم أركان هـذا التمثيل وتسمى هـذه الاعادة بتشابه الأطراف فى فن البديع (٩٧) .

٦ ـ يوقد فى صيغة المضارع على قراءة الأكثرين إفادة التجديد أى تجدد إيقاده .

٧ ـ النفى عن الشجرة أن تكون شرقية أو غربية هـذا الاستعمال كناية لأن المقصود لازم المعنى لا صريحه (٩٨) .

ومنزع هـذه الصورة من مستخدمات العربى فى البادية وهو تلك المشكاة التى يشترك الجميع فى إدراكها .

قال الله تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب » (٩٩) .

---

(٩٧) التحرير والتنوير جـ ١٨ ص ٢٣١ .

(٩٨) المرجع نفسه جـ ١٨ ص ٢٣١ .

(٩٩) سورة النور الآية ٣٩ .

السراب : هو ما يرى فى الفلا من ضوء الشمس وقت الظهيرة ويسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجرى .

بقيعة : بمعنى القاع وهو المنبسط المستوى من الأرض .

المعنى العـــام :

التعبير يرسم لحـال الكافرين ومآلهم مشهدين معجبين حافلين بالحركة والحياة فى المشهد الأول يرسـم أعمالهم كسراب فى أرض مكشوفة مبسوطة يلتمع التماعا كاذبا فيتبعه صاحبه الظامىء وهو يتوقع الرى غافلا عما ينتظره هناك وفجأة يتدرك المشهد حركة عنيفة فهـذا السائر وراء السراب الظامىء الذى يتوقع الشراب الغافل عما ينتظره هناك يصل فلا يجـد ماء يرويه إنما يجد المفاجأة المذهلة التى لم تخطر له ببال المرعبة التى تقطع الأوصال وتورث الخبال (ووجد الله عنده) وجد الله الذى كفر به وجحده وخاصمه وعاداه وجده هناك ينتظره ولو وجد فى هـذه المفاجأة خصما له من بنى البشر لروعه وهو زاهل غافل على غير استعداد فكيف وهو يجد الله القوى المنتقم الجبار فوفاه حسابه هكذا فى سرعة عاجلة تتناسق مع الفجاءة (١٠٠) .

السر البيـانى فى الآيـــة :

هو التشبيه حيث شبه الله أعمالهم فى عدم انتفاعهم بها بسراب بصفته كذا وكذا ويكون هـذا التشبيه مطابقا لأعمالهم من حيث أنهم اعتقدوها نافعة فلن تنفعهم وحصل لهم الهـلاك بسبب ذلك وهـذه الحالة المشبهة مركبة من محسوس ومعقول والحالة المشبهة بها حـالة محسوسة أى داخلة تحت إدراك الحواس ووجه الشبه هو المطمع والمقطع اليائس يقول صاحب التحرير والتنوير : أعلم أن هـذا التمثيل العجيب صالح لتفريق أجزائه فى التشبيه بأن يتحول إلى تشبيهات واستعارات

---

(١٠٠) فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب جـ ٣

فأعمال الكافرين شبيهة بالسراب والكافر يشبه الظمآن فى الاحتياج إلى الانتفاع بعمله وقوله : « يحسبه الظمآن » استعارة مصرحة ، ومفاجأة الكافر بالأخذ والعتل من جند الله أو يكون تشبيه مفاجأة من حيث أنه يبلغ الماء للشراب فبلغ إلى حيث تحقق أنه لا ماء فوجد عند الموضع الذى بلغه من يترصد لأخذه وأسره فهنا استعارة مكنية إذ شبه أمر الله وملائكته بالعدو ورمز إليه بقوله « فوفاه حسابه »(١٠١) .

ولكننى أميل إلى جعل هـذا التشبيه من قبيل الهيئة المركبة لأنها هى المقصودة من هـذا التصوير فالقصد تنفير الكفار من أعمالهم لعلهم يرجعون .

تأملات فى النظم والمنزع من خـلال السر البيانى :

١ ــ الحسبان هو الظن على المشهور ولكن الراغب قد فرق بين الظن والحسبان فقال :

إن الظن أن يخطر النقيضان بباله ويغلب أحدهما على الآخـر والحسبان أن يحكم بأحدهما من غير أن يخطر الآخر بباله فيعقد عليه الأصبع ولا يعتبر به ، وتخصيص الحسبان الظمآن مع شموله لكل من يراه كائنا من كان من العطشان والريان لتكميل التشبيه لتحقيق الشركة الكاملة فى وجه الشبه .

٢ ــ العطف بالفاء يوحى بالسرعة فى الأخذ بالحسبان .

٣ ــ هـذه الآية خاصة بتمثيل أعمال الكافرين فى الآخرة وما بعدها خاصة بتمثيل أعمالهم فى الدنيا والصورة منتزعة من ظاهرة كثيرا

(١٠١) التحرير والتنوير جـ ١٧ ص ٢٥١ .

ما رآها العربى فى حله وترحاله فى سفره وإقامته وقت الظهيرة وهى ظاهرة السراب .

قال تعالى : « أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور »(١٠٢) .

المعنى العـام للآيـــة :

هـذه الآية هى المشـهد الثانى الذى رسـمه الله تعالى لحـال الكافرين ومآلهم وفيه تطبق الظلمة بعد الالتماع الكاذب ويتمثل الهول فى ظلمات البحر اللجى موج من فوقه موج من فوقه سـحاب وتتراكم الظلمات بعضها فوق بعض حتى ليخرج يده أمام بصره فلا يراها لشدة الرعب والظلام .

السر البيـانى فى الآيـــة :

هو التشبيه وهـذا التشبيه لأعمالهم والأول فيما يؤول أعمالهم فى الآخرة وهـذا الثانى فيما هم عليه فى حال الدنيا ، وبدأ بالتشبيه الأول لأنه أكد فى الاخبار لمـا فيـه من ذكر ما يؤول إليه أمرهم من العقاب الدائم والعذاب السرمدى ثم أتبعه بهذا التمثيل الذى نبهه على ما هى أعمالهم عليه لعلهم يرجعون إلى الإيمان ويفكرون فى نور الله الذى جاء

(١٠٢) سورة النور الآية ٤٠ .
اللجى : العميق المثير المـاء منسـوب الى اللج وهو معظم ماء البحر والجمع لجج ولج البحر طال ومت أمواجه .

به الرسول ﷺ والظاهر أنه تشبيه لأعمالهم وضلالهم بالظلمات المتكاثفة(١٠٣) ويجوز أن يكون المراد من الأول تشبيه أعمالهم بالسراب فى الدنيا حال المرت ومن الثانى تشبيهها بالظلمات فى يوم القيامة كما فى الحديث الشريف الظلم ظلمات يوم القيامة .

تأملات فى النظم والنزع من خلال السر البيانى :

١ ــ أو تدل وتفيد التخيير فى التشبيه أى إن شئت مثلت أعمالهم بالسراب وإن شئت مثلت أعمالهم بالظلمات .

٢ ــ لم يكد يراها تفيد بلوغ تلك الظلمة إلى أقصى النهايات .

٣ ــ ذكر الله تعالى ثلاث أنواع من الظلمات ، ظلمة البحر وظلمة الأمواج وظلمة السحاب ، وكذلك الكافر له ثلاث ظلمات : ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل وقيل شبه قلبه وسمعه وبصره بهذه الظلمات ، وقيل : إن الكافر لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى ويعتقد أنه يدرى فهذه المراتب تشبه تلك الظلمات(١٠٤) .

٤ ــ التشبيه هنا مركب لأن القصد إلى التركيب والامتزاج واضح والصورة منتزعة أيضا من معرفة العربى عن البحر ولججه .

---

(١٠٣) البحر المحيط جـ ٦ ص ٤٦١ ــ روح المعانى جـ ٦ الجزء الثالث ص ١٨٢ .

(١٠٤) مفاتيح الغيب ــ الرازى جـ ٢٤ ص ٨٥٧ .

قال الله تعالى : « وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا »(١٠٥) .

المعنى العام :

يعدد الله نعمه لعباده .

السر البيانى فى الآية :

هو التشبيه حيث شبه الله تعالى الليل باللباس على طريقة التشبيه البليغ فاللباس ساتر للناس يستر به بعضهم عن البعض .

وفى هذا الستر منافع كثيرة لقضاء الحوائج التى يجب إخفاؤها. وفسر الزمخشرى السبات بالموت على طريقة التشبيه البليغ ناظرا فى ذلك إلى مقابلته بقوله : « وجعل النهار نشورا » .

وهى الحياة بعد الموت وهذا التشبيه من قبيل المفرد الحسى بالمفرد الحسى ووجه الشبه الخفاء والستر .

والصورة منتزعة من مستخدمات الإنسان وهو اللباس الذى يستر به عورته .

---

(١٠٥) سورة الفرقان الآية ٤٨ .

أهم المصـادر والمراجـع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ أسرار البلاغة ـ عبد القاهر الجرجانى ت د/ محمد عبد المنعم خفاجى ـ ط مكتبة القاهرة .

٣ ـ بيان التشـبيه ـ د/ عبد الحميـد العيسوى ـ ط القـاهرة الجديدة ـ الطبعة الأولى .

٤ ـ التحرير والتنوير ـ محمد الطاهر بن عاشور .

٥ ـ تدبر أسرار التنزيل ـ د/ جودة أبو زيد المهدى .

٦ ـ التصوير البيانى ـ دراسة تحليلية لمسائل البيان ـ د/ محـمد محـمد أبو موسى ط مكتبة وهبه بالقاهرة .

٧ ـ تفسير أبى السعود .

٨ ـ تفسير البحر المحيط لأبى حيان .

٩ ـ تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب .

١٠ ـ تفسير القرطبى ـ ط دار الريان للتراث .

١١ ـ جامع البيان فى تفسير القرآن ـ ابن جرير الطبرى ـ ط الريان للتراث .

١٢ ـ الجمان فى تشبيهات القرآن ـ ابن ناقيا البغدادى ـ تحقيق د/ مصطفى الجوينى ـ ط منشأة المعارف بالاسكندرية .

١٣ ـ حاشية ابن المنير على الكشاف .

١٤ ـ حاشية الدسوقى على مختصر سعد الدين على التلخيص ط مطبعة السعادة بالقاهرة .

١٥ ـ دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر فى التشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير ـ عبد الهادى العدل ط دار الفكر الحديث .

١٦ ـ دلائل الاعجاز ـ عبد القاهر الجرجانى ـ تحقيق محمد عبد المنعم خفاجى ط مكتبة القاهرة .

١٧ ـ روح المعانى ـ الألوسى البغدادى ط دار الفكر .

١٨ ـ عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح ـ بهاء الدين السبكى ضـمن شروح التلخيص .

١٩ ـ فى ظلال القرآن للشيخ سيد قطب ـ ط دار الشروق .

٢٠ ـ القرآن والصورة البيانية ـ د/ عبد القادر حسين .

٢١ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ـ الزمخشرى ط دار المعرفة بيروت .

٢٢ ـ المجازات النبوية ـ الشريف الرضى .

٢٣ ـ مجمع البيان فى تفسير القرآن ـ الطبرسى .

٢٤ ـ المطول على التلخيص ـ سعد الدين التفتازانى ـ ط مطبعـة أحمد كامل بتركيا .

٢٥ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ محمد فؤاد عبد الباقى ط دار الحديث .

٢٦ ـ مفاتيح الغيب ـ أو التفسير الكبير ـ الإمام فخر الدين الرازى
ط إحياء التراث العربى ، ط دار الغد العربى •

٢٧ ـ نقد النثر ـ قدامة بن جعفر •

٢٨ ـ النكت فى إعجاز القرآن ـ الرمانى ـ ضمن ثلاث رسائل فى
إعجاز القرآن ـ تحقيق محمد خلف الله ـ د/ زغلول سلام
ط دار المعارف •